الفصل العاشر
الجمع الشهودي

مصطلح الجمع :

تأتي أهمية هذا البحث من كونه يمثل دراسة دفاعية بإزاء الهجمات المتوالية التي كان يقوم بها المستشرقون بأفكار واهية بالية ، أرادوا بها هدم مصداقية النص وتوثيقه للتشكيك بدين الإسلام .

وقد لاكوا هاتيك المقولات المنحرفة لما يئسوا من الطعن في أحكام القرآن وتشريعاته ، ثم تركوها لزبانيتهم من الدارسين المعاصرين لتكون حجة لكفرهم لا لكونها تصحيحاً للفكر العربي الإسلامي الذي ينتصرون له وهو منهم بَراء .

وقد آثرنا عنوان « الجمع الشهودي » حتى يتذكر المتطفلون على الفكر الإسلامي أن القرآن مجموع في عالم الغيب قبل نزوله ، ولم يتشكل في الواقع ولأجل الواقع كما يتفوهون ، ويمكن أن نسمي هذا الجمع بالكتبة الأولى .

ويطلق الجمع على الحفظ والاستظهار في الصدور : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ ﴾ [القيامة : ١٧] ، أي علينا أن نحفظه في صدرك ، ونقدر على جريان لسانك في قراءته ، وتأتي من هذا المنطلق عبارة « جُمّاع القرآن » أي حَفَظته .

كما يطلق الجمع على الكتابة حروفاً وكلمات وآيات وسوراً ، وفق

الترتيب المعهود في المصاحف اليوم منذ قرون ، وأول جامع بالمعنى الأول : « الحفظ » هو النبي عليه الصلاة والسلام ، فهو أوّل الجُماع .

ويتضح هذا في حديث السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها : سمعنا رسول الله ﷺ يقول : « إن جبريل كان يعارضني القرآن في كل سنة مرة ، وإنه عارضني العام مرتين ، ولا أراه إلا حضر أجلي »[1] .

وكانت المعارضة في شهر رمضان ، إذ روى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : « كان رسول الله ﷺ أجود الناس ، وكان أجود مايكون في رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان يلقاه جبريل في كل ليلة من رمضان ، فيدارسه القرآن ، فلَرسول الله ﷺ حين يلقاه جبريل أجودُ بالخير من الريح المرسلة »[2] .

إذن ثمة مدارسة ومراجعة ، وهذه الرواية تعد معياراً ينظم الحياة الفكرية والاجتماعية ويحفظ الأمة من الزوال والذوبان في الآخرين ، إنه القانون الثنائي : النظام والركيزة . فالمعارضة في كل يوم من شهر رمضان تعليم للأمة للحرص على النظام الذي يحافظ على النفس والمجتمع ، ويغدو سبباً للتطور والإبداع واختيار الليل للبحث عن لحظات الصفاء الفكري في تلقف المعين الإسلامي بعيداً عن ضوضاء النهار ومشاغله المشتتة للذهن .

والشق الآخر من القانون هو الركيزة الفكرية ، أي مهما تقدم الشخص أو تقدمت الأمة فعليها مراجعة الركيزة الفكرية في خضم العمل

---

(١) البخاري ، المناقب ، ح (٣٤٢٦) ، والنسائي ، الوفاة ، باب ماستدل به ، ومسند أحمد ، ح (٢٦٤٥) .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم والنسائي .

الإسلامي ، لا بد من مراجعة النظري لكشف الجديد في العملي وتصويبه وتقويته .

وهذا العرض لم يكن في المدينة فحسب ، بل كان في مكة المكرمة كذلك ، ونذكر ههنا أنواع الجمع الثلاثة التي تذكر في أثنائها بعض الردود على المشتبهين ، ونترك بعض الشبهات ذيلاً للبحث .

أولاً ـ الجمع الشهودي النبوي :

أ ـ جمع الصدور :

اتضح إذن أن النبي ﷺ كان أول جُماع للقرآن ، حفظه عن ظهر قلب ، وتيسّر حفظه كاملاً لنخبة من صحابته الكرام في عهده الشريف ، ثم أكمل حفظه بعض آخر من صحبه بعد انتقاله .

وما دام من المهم رصد ظاهرة الحفظ المتواتر ، فلا بأس من أن نمهد بلمحة عن جُمّاع القرآن من الصحابة ، لنؤكد للمتنطعين أن المرحلة الشفاهية تشتمل على عدد ضخم مبارك من الصحابة ، فكان في الحفظة منهم صورة كاملة مما كان في صدره الشريف عليه الصلاة والسلام ، كل هذا إلى جانب الكتابة الموفورة التي واكبت الحفظ أو سبقته ، إذ تكتب الآيات فور نزول الوحي ، ثم يتناول الصحابة نسخاً لهم فيحفظون .

ب ـ جمّاع القرآن :

كان حُفّاظ القرآن الكريم من الصحب الكرام قد بلغوا عدداً كبيراً ، يؤكد هذا روايات مستفيضة تحدد الأشخاص أو وقائع تشير إلى العدد الكبير .

وإلى جانب هذا استدلال عقلي يضيف عدداً وافراً من النساء اللواتي كن ينتظرن أزواجهن ، ويستزدن بما نزل بعد عودة الرجال من المسجد أو

الغزو وغيره ، فضلاً عن صغار الولدان الذين لم يسجّل لهم التاريخ أسماء .

ثمة أحاديث تحدد الأشخاص الحفظة مثل الحديث المروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، عن النبي عليه الصلاة والسلام : « خذوا القرآن من أربعة : من عبد الله بن مسعود وسالم ومعاذ وأبي بن كعب »[1] اثنان من المهاجرين : ابن مسعود وسالم ، والأخيران أنصاريان رضي الله عنهم .

والراجح ألا يعني الحديث حصراً فثمة حديث يذكر الرقم سبعة ، وإنما يعني الامتيازات والتفوق في القراءة ، إذ الشغف الكبير بالقرآن يستدعي زيادة هائلة على هذا العدد الصغير ، حتى أضحى همهم الأوحد قراءة الدستور في الكتاب الأعظم وإقراؤه للآخرين ، فكل داعٍ هو مدعو داع ، وهو متلق مرسل معاً .

وورد أنه قال عليه الصلاة والسلام : « أقرؤهم أبيّ بن كعب »[2] ، واللفظ لغوياً للتفضيل فثمة قارئ وأقرأ ، فهنا تفاضل في الجودة ، أو يكون التحديد لصفة معينة هي أولوية السماع ، إذ ورد فيما روي « من أحبّ أن يقرأ القرآن غضاً كما نزل ، فليقرأه على قراءة ابن أم عبد »[3] أي ابن مسعود سدس الإسلام رضي الله عنه الذي كان يقول : « والله لقد

---

(١) البخاري ، مناقب الأنصار ، ح (٣٥٩٥) ، ومسلم فضائل الصحابة ، ح (٢٤٦٤) ، ومسند أحمد ، ح (٦٧٢٩) ، والترمذي ، المناقب ، ح (٣٨١٠) ، والنسائي ، المناقب ، ح (٨٢٤١) ولفظ مسلم : استقرئوا .

(٢) الترمذي ، المناقب : ٥/ ٦٦٤ ، وابن ماجه : ٣/ ٦٨ .

(٣) مسند أحمد ، ح (٢٦٧) ، وابن ماجه ، فضائل الصحابة ، ١/ ٦٣ ، ح (١٣٩) ، والنسائي ، المناقب ، ح (٨٢٥٥) .

أخذت من فِي رسول الله ﷺ بضعاً وسبعين سورة »[1] ونظن أنها معظم المكي لسبقه إلى الإسلام وملازمته .

ولا نستطيع إهمال اسم الفاروق عمر رضي الله عنه في هذه الطائفة الحافظة المباركة فقد « أقام من صلى صلاة التراويح بالناس في رمضان ، وأمره أن يقرأ في الركعة الواحدة نحواً من عشرين آية ، فكان يختم القرآن في الشهر مرتين »[2] .

وهذا يفيد أنه محفوظ في الصدور قبل الجمع في عهد أبي بكر وقبل نسخ عثمان للمصاحف رضي الله عنهم أجمعين .

ولكن لا نستطيع أن ندلل على حفظ الصحابة بروايات ضعيفة لا يقبلها المنطق والمشاهدات ، إذ يذكر أحد المعاصرين أن عثمان رضي الله عنه قرأ القرآن كله في ركعة واحدة[3] ، فالختمة تحتاج إلى زمن طويل لا يكون في ركعة واحدة ، فلعله بدأ بالربع الأخير حتى ختم .

ويذكر صاحب الفهرست العدد سبعة ولعله نابع من تقديس هذا العدد ولا يفيد الحصر : « والجماع للقرآن على عهد النبي ﷺ : علي بن أبي طالب ، سعد بن عبيد بن النعمان بن عمرو بن زيد ، أبو الدرداء عويمر بن زيد ، معاذ بن جبل بن أوس ، أبو زيد ثابت بن زيد بن النعمان ، أبيّ بن كعب بن قيس بن مالك بن امرئ القيس ، عبيد بن معاوية بن زيد بن ثابت بن الضحاك »[4] .

وأخرج الطبراني من طريق سعيد بن أبي عروة : « افتخر أعيان الأوس

---

(١) البخاري ، فضائل القرآن ، ح (٤٧١٤) ، ومسند أحمد ، ح (٣٨٩٥) ، والنسائي ، الزينة ، ح (٥٠٦٣) .

(٢) المدخل ، د . أبو شهبة ، ص/ ٢٥٥ .

(٣) مدخل إلى علوم القرآن ، ص/ ٩٧ .

(٤) الفهرست ، ابن النديم ، ص/ ٤١٠ .

والخزرج ، فقال الأوس : منا أربعة : من اهتز له العرش سعد بن معاذ ، ومن عدلت شهادته شهادة رجلين : خزيمة بن ثابت ، ومن غسلته الملائكة : حنظلة بن أبي عامر ، ومن حمته الدبر : عاصم بن ثابت . فقال الخزرج : منا أربعة جمعوا القرآن لم يجمعه غيرهم : أبيّ بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد »[1] .

وفي رواية : أبو الدرداء بدل أبيّ ، ولكي يكون الحصر حقيقياً لابد أن يكون الراوي أنس رضي الله عنه قد لقي كل صحابي وأخبره الصحابي عن نفسه وهذا في غاية البعد ، فالأمر مرتبط بسبب كما يوجه الرواية الحافظ الهيثمي (٨٠٧هـ) . وأبو زيد هو قيس بن السكن أحد عمومة أنس وقد توفي قريباً من وفاة النبي ﷺ .

ولو اقتصر الدارس على ظاهر الروايات السابقة لظن أن حفّاظ القرآن من الصحابة سبعة بجمع روايات البخاري ، وهذا ما وقع فيه « بلاشير »[2] الذي فاته « ماعلّق به العلماء على هذه الروايات مستبعدين صيغة الحصر ، ومؤولين فيها تأويلاً سائغاً مقبولاً » .

قال الماوردي (٤٥٠هـ) : « وكيف يمكن الإحاطة بأنه لم يكمله سوى أربعة ، والصحابة متفرقون في البلاد ، وإن لم يكمله سوى أربعة ، فقد حفظ جميع أجزائه مئون لا يحصون . وقد سمى الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام (٢٢٤هـ) القراء من الصحابة في أول كتاب القراءات له ، فسمّى عدداً كبيراً »[3] .

---

(١) مجمع الزوائد ، الهيثمي : ١٠/ ٤١ وقال : رواه أبو يعلى والبزار والطبراني ورجاله رجال الصحيح .

(٢) علوم القرآن د . صبحي الصالح ص/ ٦٥ .

(٣) البرهان ، الزركشي : ١/ ٢٤٢ .

وقد أشبع الباقلاني الكلام في حَمَلة القرآن في العهد النبوي ، وأقام أدلة وافرة على أنهم أضعاف العدد المذكور في الأحاديث السابقة ، وأن العادة تؤكد خلاف الحصر[1] ، ومن هذه الأدلة جمع عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، إذ قال : جمعت القرآن ، فقرأته كلّه في ليلة ، فقال لي رسول الله ﷺ : « اقرأه في شهر »[2] . والمقصود هو القدر الذي قد نزل إلى وقت الحديث .

ومما يؤيد كلام أبي عبيد واقع إسلامي ينقله لنا أنس نفسه الذي حصر العدد في أربعة والحديث عند البخاري أيضاً ، فقد روى « أن رعلاً وذكوان وعصية وبني لحيان استعدوا رسول الله ﷺ على عدو ، فأمدهم بسبعين من الأنصار ، كنا نسميهم « القرّاء » في زمانهم ، كانوا يحتطبون بالنهار ويصلون بالليل ، حتى كانوا ببئر معونة ، فغدروا بهم وقتلوهم »[3] .

ويذكر التاريخ مقتل الكثير في موقعة اليمامة سنة (١٢هـ) إذ استشهد كثير من الحفاظ ، قيل : خمسمئة ، وقيل : سبعمئة[4] .

وكان في العصر النبوي المبارك شبه مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم وتدارسه وفهم معانيه الجليلة ، بل كان الذي يمر ببيوت الصحابة في غسق الدجى يسمع دوياً كدويّ النحل من كثرة الأصوات في التلاوة قراءة وإقراء .

---

(١) نكت الانتصار للباقلاني ، ص/٤٣ـ ٥٦ ، وكذلك المازري الفقيه المالكي (٥٣٦هـ) في شرحه لمسلم المسمى المعلم : ٢/ ١٤٧ ، راجع المرشد الوجيز ، ص/ ٤٠ . وشعب الإيمان للبيهقي : ١/ ٣٦٠ .

(٢) البخاري .

(٣) البخاري ، المغازي ، ح (٣٨٦٢) ، وأحمد ح (١٣٣٢٥) والبيهقي في السنن ح (٢٩١٥) .

(٤) فضائل القرآن ، ابن كثير ، ص/ ١٢ .

ومن الدلائل على الانشغال بالقراءة والإقراء ، أن عمر رضي الله عنه كان يرسل القراء والمعلمين إلى الأمصار الإسلامية ، ليأخذ الناس عنهم كتاب الله ، وكان في المدينة المنورة مركز لتعليم الصبية القرآن ، هذا المركز كان عمر يتعهده ، فلما سافر إلى الشام بعد فتحها استوحش الصبية للقائه ، فخرجوا لاستقباله عند عودته إلى المدينة على مسافة يوم[1] ، وما تشديد عمر في رواية الحديث النبوي إلا للحرص على النقل الصحيح والفراغ لحفظ القرآن .

وليس الأمر قاصراً على الرجال ، فقد ذكر صاحب الطبقات محمد بن سعد (٢٣٠هـ) عن امرأة تدعى أم ورقة بنت عبد الله بن الحارث رضي الله عنهما وكان رسول الله ﷺ يزورها ، ويسميها الشهيدة ، وكانت قد جمعت القرآن ، وأنه حين غزا بدراً قالت له : أتأذن لي فأخرج معك أداوي جرحاكم وأمرّض مرضاكم ، لعل الله يهدي لي شهادة ؟ قال : « إن الله مهّد لك شهادة » ، وكان أمرها أن تؤم أهل دارها ، وكان لها مؤذن ، فضمها غلام لها وجارية ، فكانت قد دبرتهما ، فقتلاها في إمارة عمر رضي الله عنه ، فقال عمر : صدق رسول الله ﷺ ، كان يقول : « انطلقوا بنا نزور الشهيدة ، فأكرم بها من مسلمة حافظة »[2] .

واللافت للنظر أن هذه القارئة القانتة لم تقنع بثواب القراءة وتعليمه للنساء بل كانت تسعى إلى الجهاد ، هذه المقولة عبرة تُخرج كثيراً من المتعبدين اليوم من كتاتيبهم النائية عن ظروف المجتمع وأحوال الأمة ، إنها امرأة تفوق الرجال .

ويبدو أن قراءة النساء جرت سنّة بعد الصحابيات في عصور تالية مما

---

(١) تذكرة الحفاظ : ٢/ ١٠ وتاريخ القرآن والتفسير ، د . إبراهيم الأبياري ص/ ٤٤ .
(٢) الإتقان : ١/ ٧٢ .

نتشرف به ، فكان في قصر زبيدة بنت جعفر (٢١٦هـ) زوجة الخليفة هارون الرشيد مئة جارية تقرأ القرآن ، وكان يُسمع من قصرها دوي كدوي النحل من القراءة[١] ، هذا هو قصر الخليفة الرشيد وليس كما تدّعي مرويات المغرضين وكتب الدارسين المحنَّطين أنها قصور لهو وطرب .

ومما ذكر في قرطبة المعلم الإسلامي الحضاري ، أنه كان في الطرف الشرقي من قرطبة مئة وسبعون امرأة ، كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفي[٢] ، وكان هذا في ناحية من نواحيها ، فكيف بجميع نواحيها ؟

إن هذا أمر وارد عند المرأة المسلمة ابنة وزوجة وأماً وأختاً ، فهي طرف مهم في الدعوة يعنيها من القرآن ما يعني الرجال ، وهي نصف المجتمع مفكراً ومقاتلاً ، وما دام القرآن شائعاً بين رجال الصحابة ، فمن المفروغ منه أن يكون شائعاً عند النساء شقائق الرجال ، بل إن المرأة كانت ترضى بسور أو بآيات من القرآن مهراً لها[٣] .

وكان الصحابة يترددون على النبي ﷺ يتلون أمامه ما حفظوا لأجل التثبت ، وكان الواحد منهم بعد التثبت ينشر ما حفظ لمن يصادفه من المسلمين ممن لم يشهد التنزل أو لم يسمع الآيات التي نزلت آخراً فلا يمضي يوم أو يومان إلا وما نزل محفوظ في صدور كثير من الصحابة[٤] .

إنه نهج عملي ، ولا شك أن التدارس اليوم يدل على أنهم لا يسألونه بل مجرد الإلقاء ، لأنهم من شغفهم قد حفظوا قبل لقائه ، إذ لم يرد أن

---

(١) النجوم الزاهرة ، ابن تغري بردي : ٢/ ٢١٤ .

(٢) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، عبد الواحد المراكشي ، ص/ ٣٧٢ ، وراجع الجمع الصوتي الأول للقرآن ، د . لبيب السعيد ، ص/ ٢٨٥ .

(٣) فضائل القرآن ، ابن كثير ، ص/ ٤٠ .

(٤) تاريخ القرآن ، الزنجاني ، ص/ ٣٩ .

واحداً قد سأله في الحفظ ماذا أقول بعد هذه الآية ؟ . . إنما راجعوه في التأويل .

ومن البديهي أن يسبق الحفظ الكتابي حفظ الصدور ، لأنه كان يدعو مباشرة كتّاب الوحي لتسجيل ما تلقّاه عن جبريل ، ولكن يحدث أن يسبق حفظ الصدور للكتابة ، مما يدل على الشغف الكبير ، ويدل الأول على زيادة التوثيق ودفع أقوال المرحلة الشفوية الطويلة للقرآن ، إذ الراجح أنها مسبوقة بالكتابة .

وتذكر رواية أن الصحابة رضي الله عنهم سمعوا سورة الفتح وحفظوها قبل أن يقوم كُتّاب الوحي بتدوينها ، إذ كان يرجّعها وهو على ناقته في رجوعه من الحديبية ، روى عبد الله بن مغفل رضي الله عنه قال : « رأيت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته وهو يقرأ سورة الفتح يرجّع ، لولا أن يجتمع الناس حولي لرجعتها كما رجّع »[1] .

وذلك الحفظ المتقن كان مصحوباً بالفهم والتدبر ، وهذا درس لمن يتصدى اليوم لعلم القراءات السبع أو العشر أو ما فوق هذا مهملاً تدبر المعاني ونشر تعاليم القرآن بين العرب والمسلمين من غير العرب .

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : « كان الرجل منا إذا تعلّم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن » ، وقال أبو عبد الرحمن السلمي رضي الله عنه : « حدثنا الذين كانوا يستقرئون من النبي ﷺ ، فكانوا إذا تعلّموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل ، فتعملنا القرآن والعمل جميعاً »[2] .

وأخبر تعالى أن كتابه لا يحتاج إلى صحيفة ، إذ جمعه الرعيل الأول

---

(١) روه البخاري ، كتاب المغازي .

(٢) جامع البيان ، للطبري : ١/ ٨٠ .

بين حنايا صدورهم وهم في كل عصر ، إذ لا نزال نسمع بأسانيد الحفظ على قراءة معينة من معاصر إلى صحابي إلى النبي ﷺ إلى جانب حفظ المطابع وتهيئتها منه تعالى لحفظ كتابه مقروءاً مكتوباً .

فقد جاء في الحديث القدسي : « إن ربي قال لي : قم في قريش فأنذرهم ، قلت : أي ربي إذن يثلغوا رأسي حتى يدعوه خبزة ، فقال : إني مبتليك ومبتلٍ بك ، ومنزّل عليك كتاباً لا يغسله الماء ، تقرؤه نائماً ويقظان . . »[1] .

فمحلّه القلوب ، وهكذا جاء في وصف هذه الأمة « أناجيلهم في صدورهم » ، حتى صرنا نسمع بحصول الصغار على جوائز حفظ القرآن في الدول العربية والإسلامية ، وقبل هذا نصدق حفظ العلماء له لدى حداثة سنهم كالشافعي وغيره .

ونصّنا مع العلماء أن القرآن وصلنا متواتراً ، لا يلزم من يحفظه كله كلُّ صحابي ، فإذا حفظ الكل الكل على التوزيع كفى ، وإن كان الراجح أن عدد حافظي الكل كثير فلا يحصون ويشكلون حد التواتر .

وليس يؤخذ قول المرحوم أحمد أمين : « ولم يكن شائعاً في عهد النبي ﷺ حفظ القرآن جميعه كما شاع بعد ، إنما كانوا يحفظون السورة أو جملة آيات ويتفهمون معانيها ، فإذا حذقوا ذلك انتقلوا إلى غيرها ، فكان حفظ القرآن موزعاً على الصحابة »[2] .

وذكر في المكان ذاته ما روي من أن ابن عمر رضي الله عنهما « أقام على حفظ البقرة ثماني سنين » ، فكان هذا دليلاً على قلة الحفظ .

---

(١) رواه مسلم .

(٢) فجر الإسلام ، ص/١٩٧ .

نقول : إن الاستشهاد بعمل ابن عمر رضي الله عنهما يكون للحض على تدبّر القرآن ، فهل كان يستصعب حفظها في شهر مثلاً ، وكان ممن يحفظ الحديث النبوي والشعر العربي بكل سهولة ؟

وإذا سلمنا بكلام أحمد أمين ننكر بديهية واقعية ، لأنه ما دام الحفظ بالتدريج بحسب النزول المنجم ، فجميعهم يحفظون شيئاً واحداً ، ولا نقول يوزّع عليهم الحفظ الكلي ، فليس من المعقول أنهم يتقاسمون حفظ القرآن . وقد قلنا : الكل يحفظ كل القرآن ، ولا يمنع هذا زيادة حفظ البعض على بعض آخر .

ج ـ عوامل حفظ الصحابة :

لقد عرف المسلمون الأوائل بأنهم « رُهبان بالليل فرسان بالنهار » ، وثمة عوامل أسهمت في حفظ القرآن وترسيخه في صدورهم ، عوامل نفسية ، اجتماعية ، دينية ، إقليمية ، تقنية وغير هذا مما هيأه عز وجل في الأرض حتى يتحقق قوله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩].

لقد تكفّل عز وجل كما في الآية السابقة بحفظ كتابه ، خلافاً للكتب السابقة التي أوكل حفظها إلى الناس ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ﴾ [المائدة : ٤٤] .

والسبب أن هذه الكتب نازلة على التوقيت لا التأبيد ، ونزل القرآن مهيمناً زائداً على ما سبقه خالداً .

وإذا قضى الله أمراً يسر له أسبابه في الدنيا من صحابة وتابعين ونسّاخ ومطابع ، حتى إن الكفرة قد أسهموا في حفظ كتاب الإسلام ، وهذا من المعجزات .

فقد جازت المغايرة على الكتب السابقة كما دلّ القرآن وسجّل

شهادتهم بالتلاعب ، ﴿ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران : ٧٨] والمقصود التوراة والإنجيل .

واندرست مع مرور الأيام بقصد أو بغيره كتب قديمة ذكرها القرآن : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ [الأعلى : ١٨ـ ١٩] . ولا يعرف اليوم من هذه الصحف شيء ، أما القرآن فباق ، وبقاؤه معجزة تضاف إلى المعجزات التي اشتمل عليها ، فهو معجز من الخارج والداخل .

وكان الصحابة الكرام أولى الوسائل الجماعية إذ عبروا عن تلبية تامة لدعوة القرآن الجماعية ، فهم الوسيلة التي أسهمت في الأرض في حفظ القرآن ، إلى جانب كونهم أول نقلة العلم الإلهي والعلم النبوي رضي الله عنهم أجمعين ، ونذكر من عوامل حفظهم[1] :

١ـ تمهّل النبي عليه الصلاة والسلام في التلاوة :

وهو من العوامل التقنية وهذا بخلاف حاله الشخصي في بداية الأمر إذ كان يتعجل عند تلقيه من جبريل : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٤] وطمأنه عز وجل بالعون الرباني على الحفظ في آية أخرى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴾ [القيامة : ١٧] .

ومنهج التمهل معروف عنه في الحديث النبوي ليفهموا عنه ويحفظوا ، فالتمهل في التلاوة من باب أولى ، قالت عائشة رضي الله عنها : « ماكان يسرد كسردكم هذا ، ولكنه كان يتكلم بكلام بيّن فصل يحفظه من جلس إليه »[2] .

---

(١) راجع كثيراً من هذه العوامل في مناهل القرآن : ٢/ ٢٨٤ـ ٣١٠ .

(٢) الترمذي ، المناقب ، ح (٣٦٤٣) ، وأبو داود ، العلم ، ح (٣٦٥٥) .

والنبي عليه الصلاة والسلام هنا أول الأميين ، فيعتمد على الحافظة لأنهم أميون لا يعرفون القراءة والكتابة إلا قليل ونذر يسير منهم كسائر العرب ، ويعود هذا إلى بداوتهم ، وعدم اتصالهم بأمتين متحضرتين حينذاك الفرس والروم .

ولكن نضيف هنا أن بساطة الحياة العربية أيامَ ذاك دفعتهم إلى الحفظ لعدم انشغالهم بالواقع الاقتصادي أو مجالات الحياة المعقدة ، فصفت الأذهان ، وكانت عقولهم سجلات وفيرة للشعر وأيام العرب قبل القرآن والحديث ، وهكذا شُهد لهم بالذكاء والألمعية وسيلان الذهن وحضور البديهة مما لا يوجد في أمة أخرى .

٢ـ التلهف النفسي :

وقد قوي التلهف النفسي إلى القرآن الكريم ، فشغفوا به جميعاً ، لأنه كتاب غيَّر مجرى حياتهم ، وكان كما قال عز وجل روحاً نفثت فيهم الحياة : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى : ٥٢] . فهو روح ومعارفه أعلى لذة فكرية .

وليست هناك طائفة في التاريخ تمثل فيها القرآن روحاً ، كما تمثل في هذه الطبقة العليا الكريمة ، طبقة الصحابة رضي الله عنهم الذين وهبوه حياتهم ، فوهبهم الحياة ، فكان الزاد العقلي والزاد القلبي ، والمعين الفكري والبحيرة العاطفية ، وكان الدستور والحبيب ، ومفسّر الحياة والممات .

٣ـ الإعجاز البياني :

إن النص الجميل يؤدي إلى قابليته للحفظ فهو نسيج سهل على المنظومة الذهنية ، وقد قرن القرآن بين الجمالين الفكري والفني ، فكان

أسهل للحفظ عند أمة تقدّر الجانب الفني والكلمة الطيبة الجميلة .

ويبدو أن سهولة الحفظ غير قاصرة على العرب الذواقين للبيان ، فقد سهل تعالى حفظه على الأمم الأخرى بدافع الدين القويم وبفضل الموسيقا الداخلية والخارجية ، هذا ما تشهد به الأقوام اليوم من غير العرب ، لأن الانسجام بين الأحرف وبين الكلمات وبين الآيات ما يسهل النطق ويدعو إلى الحفظ .

٤ـ وجوب العمل به :

ذلك لأن القرآن هو الدستور الذي يكفل سعادتهم في الدارين الأولى والآخرة يتعبدون به ويتعاملون بتشريعاته أوامره ونواهيه ، فكان حياتهم كلها ، فالعمل بالعلم يزيده تقريراً في النفس وترسيخاً ، كما هو معروف في علم النفس من أن التطبيق يؤيد المعارف النظرية ويثبتها في الذهن .

ولا نقول مع الشيخ الزرقاني : إن من العوامل حبهم لله ورسوله عليه الصلاة والسلام ، وإن من أحب أمراً أحبّ آثاره وحديثه وأخباره ، فهذا ليس قوياً ، لأنه لا يمثل معياراً شاملاً ، ولا يصمد أمام الوقائع في كل حين .

٥ـ الحض على الحفظ والفقه :

وقد تعاهد النبي ﷺ حفظهم للقرآن ، وحضَّهم عليه وبين الثواب الجزيل كما جاء في القرآن : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر : ٢٩ ـ ٣٠] .

وثمة أحاديث وافرة في حفز الهمم على التلاوة ، مثل الحديث عنه عليه الصلاة والسلام : « وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون

كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده »[1] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « إني لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالليل حين يدخلون وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل ، وإن كنت لم أرَ منازلهم حين نزلوا بالنهار »[2] .

فهؤلاء من قبيلة أشعر اليمنية التي اشتهرت بجمال الصوت في رجالها ومنها أبو موسى الأشعري وأبو مالك الأشعري رضي الله عنهما والحديث يقف حجة واضحة على الاستجابة السريعة لدعوته إلى الحفظ ، لأنهم لم يسلموا في المرحلة المكية .

وروى أبو موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له : « لو رأيتني البارحة وأنا أستمع إلى قراءتك ، لقد أوتيت مزماراً من مزامير داود »[3] .

ويروي عبادة بن الصامت رضي الله عنه : « كان الرجل إذا هاجر دفعه النبي ﷺ إلى رجل منا يعلّمه القرآن ، وكان يُسمع لمسجد رسول الله ﷺ

---

(١) مسلم ، الذكر ، ح (٢٧٠٠) والترمذي ، الدعوات ، ح (٣٣٧٨) ، وأبو داود ، الصلاة ، ح (١٤٥٥) ، والدارمي ، كتاب النبي ﷺ ، ومسند أحمد ح (١٢٤٧٦) ، والمعجم الأوسط ح (٣٧٨٠) ، وابن حبّان الرقاق ، ح (٨٥٥) .

(٢) البخاري ، المغازي ، ح (٣٩٩١) ، ومسلم ، فضائل الصحابة ، ح (٢٤٩٩) ، وشعب الإيمان للبيهقي ، ح (٢٦٠٣) .

(٣) البخاري ، فضائل القرآن ، ح (٤٧٦١) ، ومسلم ، صلاة المسافرين ، ح (٧٩٣) ، والترمذي ، المناقب ، ح (٣٨٥٥) ، وابن ماجه ، إقامة الصلاة ، ح (١٣٤٣) ، والدارمي ، الصلاة ، ح (١٤٨٩) ، والنسائي ، فضائل القرآن ، ح (١٠٩٣) ومسند أحمد ، ح (٨٦٣١) ، وموارد الظمآن ، المناقب ، ح (٢٢٦٣) .

ضجة، حتى أمرهم رسول الله ﷺ أن يخفضوا أصواتهم لئلا يتغالطوا »[1].

وقال فيما يرويه عثمان رضي الله عنه : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه »[2] ، فالاشتغال بالتلاوة خير من الاشتغال بصلاة النوافل كما جاء في حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه : « لأن تغدو فتتعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلي مئة ركعة » ابن ماجه . ولم يكتف بالحض على الحفظ ، بل حذر من الإعراض عن القرآن وذنب نسيانه ، إذ قال : « عرضت علي ذنوب أمتي ، فلم أر ذنباً أعظم من سورة من القرآن ، أو آية ، أوتيها رجل ثم نسيها »[3] .

ومن الأحاديث : « من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول « الٓمٓ » حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف »[4] ، ويرجع إلى فضائل القرآن لابن كثير ، وتلاوة القرآن المجيد للشيخ عبد الله سراج الدين رحمه الله لمزيد من الشواهد وشروحها .

٦ـ مفاضلة الحفاظ :

عهد عن النبي عليه الصلاة والسلام أن يقدم الأحفظ في الإمامة فقال : « يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله »[5] ، وكذلك في لحد الميت وكلاهما

---

(١) ابن ماجه ، كتاب النبي ﷺ ، ح (٢١٩) .

(٢) الترمذي ، فضائل القرآن ، ح (٢٩٠٧) ، وأبو داود ، الصلاة ، ح (١٤٥٢) ، والنسائي ، فضائل القرآن ، باب فضل من تعلم القرآن ، ح (٨٠٣٦) والدارمي ، فضائل القرآن ، باب خياركم ح (٣٣٣٨) .

(٣) ابن ماجه ، كتاب النبي ﷺ ح (٢١٩) .

(٤) الترمذي ، فضائل القرآن ، ح (٢٩١٠) ، ومجمع الزوائد في فضل القرآن ، ومصنف عبد الرزاق ، (٦٠١٧) ، والمعجم الكبير ح (٨٦٤٦) .

(٥) مسلم ، المساجد ، ح (٦٧٢) ، والترمذي ، الصلاة ، ح (٢٣٥) ، وأبو داود ، =

شرف تسعى إليه النفوس المؤمنة .

وهكذا اختير أبو بكر رضي الله عنه للإمامة العظمى فقد صح أنه بنى مسجداً صغيراً في فناء داره في مكة ليفرغ لقراءة القرآن ، حتى خشي المشركون أن تفتتن نساؤهم وصبيانهم بقراءته .

ومثله الولاية والقضاء وقيادة السرايا كأبي موسى الأشعري وسالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنهم ، وقد كان سالم يحمل اللواء يوم اليمامة ، فقيل له : إنا نخاف أن نُؤتى من قبلك ؟ فقال كلمة إيمان عميق وحفظ متقن : « بئس أنا حامل القرآن إذاً »[1] .

ومما يدل على ارتباط بعض الوظائف الدينية والدنيوية بحفظ القرآن الإمامةُ في الصلاة وهي من المناصب الدينية الهامة التي تولاّها عليه الصلاة والسلام طول حياته الشريفة ، وكان يستخلف القارئ الفقيه إذا سافر أو خرج في غزو ، ثم كانت الإمامة للخلفاء الراشدين رضي الله عنهم الذين ولّوا على المسلمين في الأمصار الولاة والأمراء المعروفين بالحفظ والعلم .

وكان للحافظ مكانة مرموقة بين إخوانه الصحابة ، إذ قال أنس بن مالك رضي الله عنه « كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جلَّ في أعيننا »[2] .

= الصلاة ، ح(٥٨٢) والنسائي ، الإمامة ، ح (٨٥٥) ، ومسند أحمد ، ح (١٢٦٨٧) ، وابن خزيمة ح (١٥٠٧) .

(١) المدخل ، د . أبو شهبة ، ص/٢١٦ .

(٢) الترمذي ، فضائل القرآن ، ح (٢٩١٦) ، وأبو داود ، الصلاة ، ح (٤٦١) ، ابن خزيمة ، الصلاة ، ح (١٢٩٧) ، والسنن الكبرى ، الطهارة ، ح (٤١١٠) ، ومصنف عبد الرزاق ، الصلاة ، ح (٥٩٧٧) ، والمعجم الأوسط ، ح (٦٤٨٩) ، والمعجم الصغير ، ح (٥٤٧) .

٧ـ التفرغ للحفظ :

وهذا معروف عند أهل الصّفة الذين لم يشتغلوا بالتجارة ، وقد اجتمعوا في مكان مظلل من مسجد رسول الله ﷺ يأوون إليه ، إذ لا دار لهم ولا أهل ، فيبيتون ويطعمون ويتدارسون القرآن .

إن أهل الصفة أضياف الله والإسلام ، كانوا يحتطبون بالنهار ، ويقومون الليل ويقرؤون القرآن يحفظونه ويتدارسونه ويعلمونه غيرهم ، ولم يكونوا كسالى ولا خاملين بعيداً عن الكفاح والكدح كما يزعم بعض المتخرصين عليهم ، وإنما كانوا إذا وجدوا عملاً عند أحد عملوا فيما يشبه المياومة عندنا ، وإذا لم يجدوا احتطبوا ، وأطعموا إخوانهم ، وجعلوا همهم حفظ القرآن وأعدوا أنفسهم للجهاد .

٨ ـ يسر النسق :

ويبدو من الجلي أن الله عزّ وجل أودع في القرآن خصيصة مازه بها من كتب أخرى سماوية وغيرها ، ونعني خصيصة التيسير لقارئه ، في ثنائية القوة الدينية الغيبية والنسق الموسيقي ، فهو ميسرلمن قصد حفظه ، وهذه ميزة لا تفارقه على مر العصور .

والتاريخ خير دليل على هذه الظاهرة المشرفة ، إذ لا يخلو عصر ومصر من جموع غفيرة من الكبار والصغار يحفظون القرآن ، وهذا مصداق لقوله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ ﴾ [القمر : ١٧] ، حتى انتشرت القراءة في المساجد والكتاتيب بألوف من الحفاظ في كل عصر .

٩ـ التنجيم :

تجلت الحكمة الإلهية في نزول القرآن منجماً أي مفرقاً مما يسهل الحفظ ، فتجلت الحكمة في التربية والتعليم ، وكذلك تعد السنة منجمة

مما سهل تقرير القرآن والسنة في أذهان الصحابة ، وكل هذا مصحوب بالفهم ، فكانوا خير نقلة وخير معلمين .

ويتعلق بعض الدارسين المغرضين برواية لا ننكرها ، ولكن ننكر تأويلهم لها على حسب أهوائهم في الدس والتشكيك بدين الإسلام ، وهي أنه ﷺ سمع أحد الصحابة وهو عباد بن بشار يتلو آيات ، فقال : ذكرني الآيات وكنت قد نسيتها ، وكأنما يُطلب منه أن يفكر في لحظة واحدة بكل الآيات !

فالخبر لا يُدفع وهو « يدل على أن قراءة الرجل للآيات ذكرت النبي ﷺ إياها ، وكانت قد غابت عن ذاكرته ، وهذا النوع وإن سمي نسياناً لا يزعزع الثقة بالقرآن ، فإن الرسول ﷺ كان قد حفظ هذه الآيات قبل أن يحفظها عباد ، واستكتبها كتّاب الوحي ، وبلغها للناس وحفظوها عنه ، فالخبر لا يفيد أن هذه الآيات قد انمحت من ذهنه جملة إنما غاية ما تفيد أنها كانت غائبة عنه ثم ذكرها ، والدليل قائم على استحالة النسيان التام فيما يخلّ بوظيفة الرسالة »[1] .

وإذا لم يستطع المستشرق تأويل الرواية تأويلاً صحيحاً سعى إلى المرويات الواهية التي سجلها للأسف علماؤنا من غير تدقيق من مثل نسخ التلاوة والنقصان انتصاراً لفئة[2] ، فزاد عليها هؤلاء المستشرقون من نفوسهم الحاقدة وخيالاتهم .

وهكذا عقد نولدكه الألماني فصلاً بعنوان « الوحي الذي أنزل على

---

(١) مذكرات علوم القرآن ، محمد علي سلامة ، وأحمد أحمد علي ، ص/ ٧٦ .

(٢) راجع بعض الغلاة عند الألوسي في روح المعاني ، وراجع أقوال المنصفين في مجمع البيان . . للطبرسي ، وراجع المدخل ، د . أبو شهبة ، ص/ ٢٨ وما بعدها . ومذكرات في علوم القرآن ص/ ٧٥ .

محمد ولم يحفظ في القرآن » من كتابه « تاريخ القرآن » ، وكذلك من أباطيل في مادة القرآن من « دائرة المعارف الإسلامية » ضياع فقرات من القرآن .

وكذلك التخرص في « دائرة المعارف البريطانية » التي جاء فيها أن القرآن غير كامل الأجزاء ، وزادُ هؤلاء معروف ، ولكن ما بال بعض الدارسين العرب يعتمدون عليهم ونعني منهم الدكتور طيب تيزيني الذي إذا أراد أن يعرّف قضية قرآنية ينقل عن هنري ماسيه وغيره ، وكأنهم هم المسلمون تقوى ، و هم المنهجيون الموضوعيون .

وهكذا لا نحب أن يتتلمذ دارس عربي على حاقد غربي يتفوه بالترهات يلوكها فيشوه تلاميذه ، فقال أحدهم : « إن النبي عليه الصلاة والسلام قد أسقط شيئاً من الآيات ثم ذكره أحد الصحابة ، والدليل على هذا النسيان : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الأعلى : ٦ ـ ٧] مع أنه استثناء صوري يؤكد عدم النسيان » .

واحتج بضياع القرآن مع موت كثير من الصحابة وضياع العظام التي كتب عليها ، وزعم أن الحجاج بن يوسف الثقفي (ـ ٩٥هـ) أسقط أشياء كثيرة نزلت في ذم بني أمية وكأن الأمة حينذاك كرتون لا يجيب أو ببغاوات مرددة ، ولم تقاتله لأدنى من هذا الافتراء !

وزعم الباحث أن آية : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ [آل عمران : ١٤٤] من قول أبي بكر رضي الله عنه ، وأن آية : ﴿ وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة : ١٢٥] من كلام عمر رضي الله عنه ! وإنهم يعرفون أنها أباطيل كما يعرفون أبناءهم فكيف يأخذ عنهم من يعرف المصادر الصحيحة ؟!

٢ـ جمع السطور :

لقد انتقل النبي الأكرم عليه الصلاة والسلام ، والقرآن جميعه مكتوب على العُسُب أي جريد النخل، واللخاف وهي صفائح رقيقة من الحجارة، والرقاع والأديم والأكتاف من العظام ، والأقتاب وهي قطع خشبية توضع على ظهور الإبل ، وهذا بحسب ما توافر في ذاك العصر وتعورف عليه .

إن الجمع في السطور لون من ألوان الحفظ ، لا يذهب بذهاب الإنسان وتلك وسيلة هيأها عز وجل تحقيقاً لقوله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] هكذا بصيغة التفخيم والتأكيد الشديد ، لذلك اتخذ النبي عليه الصلاة والسلام كتّاباً للوحي ليس على سبيل الاجتهاد ، بل هو مبلغ ، فالأمر سماوي .

ويرى الدكتور فضل : « أن سبب الكتابة هو المحافظة على النص القرآن من أن يطرأ عليه شيء من التغيير ، إذ إنه لا تحل روايته بالمعنى ، لأن القرآن الكريم معجز بنظمه متعبد بتلاوته »[1] .

ولكن نرى أن الحكمة الإلهية اقتضت الأمر بالكتابة لتيسير الاطلاع على القرآن في الأمم الأخرى بعد عصور يتباعد فيها القراء ، فيسهل الرجوع إلى مصحف ليتعلم المسلم دينه ، ويستحيل عليه أحياناً السماع إلى شيخ ، بل هو مكتوب ليلزم الكفرة الحجة بعد اطلاعهم عليه ، فقد يمنعهم الشيخ من سماعه ، واليوم نشر الكتابة أسرع من نشر الصوت .

وكان من هؤلاء الكتّاب الخلفاء الأربعة الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ، وكذلك أبيّ بن كعب وخالد بن الوليد ومعاوية بن أبي سفيان رضوان الله عليهم .

---

(١) إتقان البرهان : ١/١٩٦ .

واشتهر من هؤلاء الكتّاب خمسة وعشرون ، لكن العدد الكلي أكبر ، كما يؤكد ابن حديدة الأنصاري (ـ ٧٨٣هـ) في كتابه الميمون « المصباح المضيّ في كتّاب النبي العربي » وهو مخطوط فيما نعلم .

واستوعب عددهم الحافظ العراقي (ـ ٨٠٦هـ) فذكر اثنين وأربعين كاتباً ، ثم وصل العدد عند البرهان الحلبي (ـ ١١٤٦هـ) إلى ثلاثة وأربعين[١] .

ويذكر البلاذري (ـ ٢٧٩هـ) : « أول من كتب لرسول الله ﷺ مقدمَه المدينة أبيّ بن كعب وزيد بن ثابت ، فكانا يكتبان الوحي بين يديه وكتبه إلى من يكاتب من الناس »[٢] .

وقد ادّعى بلاشير أن بعض كتّاب الوحي لم يكونوا موضع ثقة ، فهم يكتبون في تذييل الآيات ﴿ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ بدلاً من ﴿ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ معتمداً على رواية واحدة إن صحت عن ابن أبي السرح (ـ ٣٧هـ) ، فالمعلوم إتقان الحفظ عند النبي عليه الصلاة والسلام وصحابته الكرام مما يستبعد التحريف ، بالإضافة إلى قراءته على جبريل كل عام[٣] .

وقلة معرفة بلاشير بالبيان العربي تقف حاجزاً دون فهمه لسياق الآية

---

(١) شرح الألفية في السيرة ، ص/ ٤٤ ، والتراتيب الإدارية للكتاني : ١/ ١١٦ ، و« الاستيعاب » لابن عبد البر عند ترجمة زيد ، وعيون الأثر ، لابن سيد الناس : ١/ ٣١٥ ، وتفسير القرطبي : ١٣/ ٣٥٣ ، وإمتاع الأسماع للمقريزي : ١/ ١٠١ ، وفتح الباري : ٩/ ٢٣ ، وتهذيب الأسماء واللغات للنووي : ١/ ٢٩ ، وحاشية الشبراملسي على المنهج عند كتاب القضاء ، وحواشي الشفا للبرهان الحلبي ، والمطالع النصرية للموريني ص/ ١٤ ، وعنوان البيان في علوم التبيان لمحمد حسنين مخلوف ، ص/ ٦٨ ، وكتاب النبي ، محمد مصطفى الأعظم .

(٢) فتوح البلدان للبلاذري ، ص/ ٤٧٣ ، ليدن ، ١٨٦٦ .

(٣) راجع تاريخ القرآن الكريم ، د . عبد الصبور شاهين ، ص/ ٥٤ ، وإتقان البرهان : ١/ ٢٠٥ .

الذي يناسبه تذييل دون آخر ، فلا يمكن أن توضع المغفرة موضع العزة والحكمة ، ولم يقرأ شيئاً عن تمكن الفاصلة القرآنية مما أسهب فيه العلماء والدارسون اليوم[1] .

وهل يصعب على الصحابي معرفة التذييل الحقيقي وهو كلمتان ، ويسهل عليه حفظ كلمات كثيرة قبل التذييل وهو البليغ المتدين مما ينتفي في شخصية بلاشير .

وكثرة الكتّاب تعني وجود نسخ كثيرة للقرآن في العهد النبوي ، فلا شك في أن يهرع الكاتب إلى اتخاذ نسخة له ، لكن اشتهر من النسخ مصحف ابن مسعود وأبيّ رضي الله عنهما .

ونتبرك ههنا بحديث زيد رضي الله عنه : « كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع ، إذ قال : طوبى للشام ، لأن ملائكة الله باسطة أجنحتها عليهم »[2] .

فالحديث الصحيح جاء في سياق فضائل المدن مما يزيد في صحة الواقعة المتكررة ، التي تفيد أنه كان يشرف على نسق الآيات عند نزول آيات تكمل سوراً .

وروى ابن عباس رضي الله عنه : « كان رسول الله ﷺ إذا نزلت عليه سورة دعا بعض من يكتب ، فقال : ضعوا هذه السورة في الموضع الذي يقال يذكر فيه كذا وكذا »[3] .

وقد انتشرت الكتابة في المدينة لوجود الاستقرار وكثرة الكتّاب الذين

---

(١) راجع دراسات فنية في القرآن الكريم ، د . أحمد زكريا ياسوف .

(٢) رواه الإمام البخاري .

(٣) الترمذي ، التفسير ، ح (٣٠٨٦) ، والنسائي ، فضائل القرآن ، ح (٨٠٧) ، ومسند أحمد ، ح (٣٩٩) .

زادوا على كتّاب مكة ولا يعني الانتشار انتفاء كتابة القرآن في مكة ، خصوصاً أن الخلفاء الراشدين وغيرهم قد أسلموا في مكة مما يجعلنا نتأكد من كتابتهم ونؤكد وجود الكتابة بدلائل متعددة .

منها قصة إسلام عمر رضي الله عنه ، إذ جاءه رجل فقال له : أختك قد صبأت ، فذهب إلى أخته فلطمها ، ولما سكت عنه الغضب ، رأى صحيفة في ناحية بيتها ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ إلى قوله : ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الحديد : ١ـ ٨] ، واطلع على صحيفة أخرى وجد فيها ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إلى قوله : و﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه : ٨] فأسلم .

ومن الأدلة على انتشار الكتابة في المدينة المنورة ووجود نسخ خاصة بكتبة الوحي العارفين بالكتابة وغيرهم تحذيره عليه الصلاة والسلام : « لاتسافروا بالقرآن ، فإني لا آمن من أن يناله عدو »[1] وفي كتابه إلى عمرو بن حزم : « أن لا يمس القرآن إلا طاهر »[2] .

ومما يزيد في توثيق هذه الكتابة أنها كانت فور النزول ، فكان عليه الصلاة والسلام يملي لساعته ، كما روى البراء عند نزول ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء : ٩٥] فقال : « ادع لي زيداً ، وليجيء باللوح والدواة والكتف ، ثم قال : اكتب : ﴿لَّا يَسْتَوِى . .﴾ »[3] .

ونتساءل : هل كانت الصحف أكثر أم الوسائل الأخرى ؟ ونرجّح أن

---

(١) مسلم ، الإمارة ، ح (١٨٦٩) ، ومسند أحمد ح (٤٤٩٢) .

(٢) الدارمي ، كتاب النبي ﷺ ح (٢٢٦٦) ، والموطأ ، الصلاة ، ح (٤٦٩) . والسنن الكبرى ، الطهارة ، ح (٤١٤) ، والدارقطني ، الطهارة ، ح (١) ، وشعب الإيمان ، ح (٢١١١) .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام : ١/ ٣٤٤ .

تكون الصحف هي الأكثر لأن الاستدعاء السريع للكتابة ساعة نزول الوحي يستدعي تنوع الوسائل مما يتيسر في تلك الساعة وفي ذاك المكان ، ثم يهرع كل واحد إلى الاحتفاظ بنسخة على صحف تتيسر له على مهل .

فإن قلنا : إن سورة البقرة لا تحفظ إلا في حجرة كبيرة كما في كتاب معاصر[1] ، فإن هذا يُشكل على المثقفين المعاصرين ويحقق ثغرة للمغرضين ، إذ يتصورون فناء الوسائل من لخاف وعظام وضياعها ، وينسون أنه يدعو كُتّاباً لا كاتباً واحداً ، ولا شك في تنوع الوسائل ووجود الصحف هنا وهناك[2] .

ويرجّح الدكتور فضل أن الإملاء كان حرفاً واحداً ، أما بقية الأحرف فكان يشافه بها النبي عليه الصلاة والسلام صحابته ، وإن كتب شيئاً من الحروف الأخرى فإنما هو لبعض الصحابة الذين كانوا يحبون أن يكتبوا ما شوفهوا به[3] ، وهذا الرأي يحتاج إلى دليل ، ولعله رأي نابع باعتقاد الدكتور فضل أن الأحرف رخصة مؤقتة للصحابة .

ونستطيع تأكيد جمع القرآن في النظم والتلاوة ، ولم يصرّح نص بإتلاف النسخ التي زيد عليها آيات ، فالمشهور التعديل بالزيادة وفق الترتيب ، ترتيب الآيات كما في مصاحفنا اليوم ، ولم يجمع في مصحف واحد كما في خلافة أبي بكر المباركة لأسباب متعددة .

منها الاستغناء بحفظ الصحابة وتواتر حفظهم بعدئذ ، وانعدام الفتنة وقلة العمران ، فالمجتمع المسلم ضيق الحدود ، ثم إن نزوله منجماً يمنع الجمع في مصحف ، ولسنا نرى للسفر سبباً كما يذهب الشيخ الزرقاني

---

(١) البخاري ، فضائل القرآن ، ح (٤٧٠٤) ، وابن حبان ، الوحي ، ح (٤٠٤) .
(٢) إتقان البرهان : ١/ ٢٠٤ .
(٣) التجويد وعلوم القرآن ، د . عبد البديع صقر ، ص/ ١٧ .

لأن أثر السفر زاد في عهد الجمع في مصحف عهد أبي بكر ثم عهد عثمان رضي الله عنهما .

وقال الإمام الزركشي : « وإنما لم يُكتب في عهد النبي ﷺ مصحف لئلا يفضي إلى تغيير في كل وقت ، فلهذا تأخرت كتابته إلى أن كمل نزول القرآن الكريم بموته ﷺ »[1] ، لكنّ الجمع في مصحف أبي بكر كان بعد وفاته عليه الصلاة والسلام بشهور ، لم يصدر قرار الجمع عند المبايعة بالخلافة .

أما صعوبة الجمع في مصحف بسبب نسخ التلاوة ، فإننا نحتاج إلى سبب قوي يقوّي هذا السبب ، فنسخ التلاوة يعتمد على نصوص ضعيفة السند أو تأويلات مخالفة للقرآن ، يتمسك بعض المعاصرين[2] بهذا السبب وكأن نسخ التلاوة يحدث في كل شهر .

وهذا النسخ إلى جانب الاطمئنان إلى حفظ النبي ﷺ وحده ، هو من الأسباب التي يذكرها الزركشي : « لأن الله تعالى كان قد أمّنه من النسيان بقوله : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الأعلى : ٦ـ ٧] أن يرفع حكمه بالنسخ ، فحين وقع الخوف من نسيان الخلق حدث ما لم يكن « فأحدث بضبطه ما لم يُحتج إليه قبل ذلك »[3] .

وأكثر العلماء على أن جمع القرآن في العهد النبوي اعتبر فيه شمول المكتوب على الأحرف السبعة وإن لم يكن ثمة دليل على هذا ، كرأي القائل بالكتابة على حرف واحد ، الرأي المفتقر إلى دليل ، لكن المهم أن

---

(١) البرهان : ١/ ٣٠٠ .

(٢) مذكرات في علوم القرآن ، ص/ ٦٦ ، والتبيان ، محمد علي صابوني ، ص/ ٦٧ ، ولمحات في علوم القرآن ، ص/ ١٠٣ . وانظر مقدمة تفسير التوبة في ظلال القرآن .

(٣) البرهان : ١/ ٣٠٠ .

كل ما يكتب من قرآن كان يوضع في بيت النبيَ ﷺ .

وينسخ الكتّاب نسخاً لهم ، فتعاونت نسخ هؤلاء والصحف التي في بيته عليه الصلاة والسلام مع حافظة الصحابة الأميين والكاتبين ، على حفظ القرآن وصيانته متواتراً مصدقاً لقوله عز وجل : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] .

إن خوف الشيخين عمر ثم أبي بكر رضي الله عنهما من موت القراء لا يعني كما ادعى جفري عدم الجمع في صحف في العهد النبوي فترتيب الآيات في العهد النبوي لا يخالف ما نحن عليه اليوم وإن لم يكتمل نزول القرآن إلا بوفاته ﷺ ، كما أن جمع السورة وارد في كثير من الأخبار مثل قراءته الأعراف في الصلاة ، والبقرة في الكسوف مع أن نزولهما لم يكن جملة .

وتشكيك الغربيين بأن الكتابة في العهد النبوي لا يُطمأن إليها لعدم النزول في وقت معين ، وعدم إمكان استدعاء كتبة الوحي ، أو أنه كان عليه الصلاة والسلام ـ كما يفترون ـ يُحسن الكتابة ! بل الحق أنه كان لا يحسن الكتابة كما تشهد الدراسات المنصفة، وكان محوطاً دائماً بأصحابه وفيهم كتبة ، والراجح أنه كُتب معظم القرآن في مكة أرض التواتر بنسخ أقلّ ، أي أعيدت كتابة بعض السور المكية في المدينة أرض الرخاء .

وقد أثبت التاريخ إمكان الإملاء على الكتبة من غير خلل ، لأنه عليه الصلاة والسلام حافظ محفوظ من النسيان إن تأخر عليه الكتبة بالمجيء ، ولم يرد أن الإملاء وقع في أوقات متنوعة تصعّب من حضور الكتبة ، وعلى كل حال يعدّ الإملاء أمراً سهلاً على داعية لا يستخدم السيف ، وسياق الأحاديث والسيرة ما يؤكد أنه لم يكن وحده ، ولم يبتعد عنه الصحب الكرام إلا إذا دخل بيته .

لذلك نجد من التخبط الفكري ما تفوّه به آرثر جفري إذ قال : « الرأي الشائع في أن القرآن الكريم كتب في عهد النبي عليه الصلاة والسلام لا يقبله المستشرقون ، لأنه يخالف ما جاء في أحاديث أخرى ، أنه قبضﷺ ، ولم يجمع القرآن في شيء »[1] .

وهذا مما يدل على جهالته ووهمه في فهم النصوص ، كما دل على جهله بالعربية ورسوخ قدمه في الجرأة على التحريف والتصحيف عندما حقق كتاب المصاحف لابن أبي داود (٣١٦هـ) ، مع أنه قرأ في كتاب آخر حققه وهو « مقدمتان في علوم القرآن » روايات تصرّح بكتابة القرآن في العهد النبوي ، وبلفظ الجمع كذلك .

فأين كان عقله لما قرأ وحقق هذا النص : « أن القرآن كان مجموعاً على عهد رسول الله ﷺ ، وأنه ما نزلت آية إلا وقد أمر رسول الله ﷺ من يكتب له ، أن يضعها في موضع كذا من سورة كذا »[2] .

وهكذا قصرت أفهامه عن وعي النصوص ، ففهم أن تحري عمر رضي الله عنه ودقته وخوفه من موت الحفّاظ أن النص لم يكن مكتوباً في العهد النبوي ، وتناسى أن طريقة الأداء المكتوب لا تكون إلا عن طريق التلقين والرواية ، وعن طريق عرض المكتوب بالوسائل الموجودة على حفظ الصدور .

ومن الآراء الهراء ما جاء به كارل بروكلمان من سموم : « لقد جمعت قديماً ـ بلا ريب ـ سور متفرقة في مجموعات تتميز بأحرف من الهجاء في فواتحها ، فبقيت لذلك على تأليفها ، ومن أقدم هذه السور وأهمها على

---

(١) راجع دراسات قرآنية د . عدنان زرزور ، ص/ ٨٥ـ ٩٤ .

(٢) مقدمتان ، ص/ ٢٧ ، ومقدمة المصاحف ، ص/ ٥ .

وجه الخصوص مجموعة آل حاميم »[1] .

إنها ثنائية الجهل والحقد التي قد يعافي الله عز وجل منها بعض الغربيين ، فتصدر عنهم آراء سديدة منصفة ، فلا نعدم عندهم موضوعية قد تنتفي عند معاصرين من أمتنا أنصاف مثقفين يتلقون كلام المستشرقين بكل تقديس وتوقير وكأنه رواية موثوقة في حين يرفضون أساساً منهج الرواية عند المحدثين ووثائقيتها .

من هؤلاء المنصفين « لوبلوا » إذ قال : « إن القرآن هو اليوم الكتاب الرباني الوحيد الذي ليس فيه أي تغيير على الإطلاق في النسخ التي لا حصر لها ، والمتداولة في البلاد الإسلامية الواسعة ، فلم يوجد إلا قرآن واحد لجميع الفرق الإسلامية المتنازعة ، وهذا الاستعمال الإجماعي لنفس النص ، المقبول من الجميع حتى اليوم ، يعدّ أكبر حجة ودليل على صحة النص المنزّل الموجود معنا »[2] .

وفي المكان نفسه ينقل الدكتور دراز من كتاب لوبلوا « القرآن والتوراة العبرية » قوله : « من ذا لم يتمنّ لو أحداً من تلاميذ عيسى الذين عاصروه قاموا بتدوين تعاليمه بعد وفاته مباشرة » .

٣ـ تصحيح فهم :

قلنا : إن كتّاب الوحي قد استخدموا ما كان موفوراً في زمانهم وبيئتهم العربية من أدوات كاللخاف والأديم والعسب ، وربما اجتمع لدى كثير منهم معظم القرآن ، لكن الراجح أنه لم يجمع كل القرآن عند واحد منهم لكون الأغلبية أميين ولقلة الأدوات .

---

(١) تاريخ الأدب العربي ، بروكلمان : ١/ ١٤٠ ، ٢٢٦ .

(٢) مدخل إلى القرآن الكريم ، د . دراز ، ص/ ٣٩ .

وقد جعل الله حفظ القرآن في الصدور ابتداءً وانتهاءً ، وجعله في السطور احتياطاً لانتفاء التصحيف والتحريف ودفع الوهم من كل وجه ، والتواتر يكون بتلقي الصدور لا تلقي السطور ، ولا يكون تواتر المكتوب إلا بمعارضته على القراءة ، فالمكتوب يحتاج إلى إجازة قولية ، وليس العكس صحيحاً .

ورد في الحديث النبوي أنه حصر الكتابة في القرآن ، فمنع كتابة شيء غيره ؛ والمقصود منع كتابة الحديث ، إذ روى الإمام البخاري أن رسول الله ﷺ قال : « لاتكتبوا عني شيئاً إلا القرآن ، فمن كتب عني شيئاً غير القرآن فليمحه »[1] .

وكثر النقل عن العلماء قدامى ومعاصرين أنه كان يخشى اختلاط النصين على الصحابة بالإضافة إلى سبب قلة الأدوات يقول الشيخ الزرقاني : « خشي الرسول ﷺ أن يختلط القرآن بالسنة ، إذا هم كتبوا السنة كما كانوا يكتبون القرآن ، أو أن تتوزع جهودهم وهي لا تحتمل أن يكتبوا جميع السنة وجميع القرآن ، فقصرهم على الأهم أولاً ، وهو القرآن ، خصوصاً إذا لا حظنا أن أدوات الكتابة كانت نادرة لديهم إلى حدّ بعيد »[2] .

إن هذه الأسباب تحتاج إلى مناقشة ، لندفع تهمة عدم التمييز بين نصين عند الفصحاء الصحابة ، ولنبعد الشك بوجود كتابة للحديث النبوي ، ولنناقش ما دام العقل لا ينتفي في النقل .

فالتعليل الأول غير مسلم به على الإطلاق ، لأن الصحابة كانوا

---

(١) راجع الصحابة حراس الحديث د . أحمد زكريا ياسوف . ص/ ١٣٣ـ١٤٦ .
(٢) مناهل العرفان : ١/ ٢٨٥ .

فصحاء كما يشهد التاريخ ، فهم يميزون بين مستويات الكلام الإلهي والكلام البشري ، وإذا كان الأمر كذلك ، فلم يأذن لبعض الصحابة بكتابة الحديث ؟ .

كذلك لا نسلّم بالتعليل الأخير ، لأنه لو طولبوا بكتابة الحديث لكان فرضاً عليهم سعوا لأجل تنفيذه إلى كل أشجار النخيل وجمعوا اللخاف من كل مكان ، أو أن الله عز وجل يهيئ لهم الأدوات الوافية .

فالصحيح إذن تقديم الأوليات في الخطاب الديني ، فينشغل الصحابة بالقرآن لأنه الكتاب الأول والدستور الأول ، إنما أراد توزيع مسؤولية التبليغ عنه على جميع الصحابة .

قال الدكتور فهد الرومي : « ولو أذن للكتّاب بالكتابة للحديث لاعتقد الأميون أن مسؤولية التبليغ مقصورة على الكتّاب الذين يحتفظون عندهم بالنصوص الشرعية وأن ذمتهم هم بريئة ، فلما نهى الرسول ﷺ من يكتب عنه كتابة غير القرآن أصبح الصحابة كلهم سواسية في التلقي عن الرسول ﷺ ، لا يتميز من يكتب عمن لا يكتب ، وأصبحت الدعوة إلى الله يشترك فيها الجميع ، وخير للدعوة أن ينشرها كل الصحابة من أن يقتصر أمرها على عدد من الكتّاب »[1] .

وحتماً لا يُقال هنا : لمَ أذن لهم بكتابة القرآن ؟ لأن « تبليغ القرآن لا يرد عليه ما يرد على تبليغ غيره ، فلن يعتقد الأميون منهم أن تبليغه واجب على الكتّاب فحسب ، فهم يقرؤونه سراً وجهاراً في بيوتهم وفي مساجدهم ، في خلواتهم وفي مجتمعهم وفي صلواتهم ، فلتبليغه وسائل عديدة لا تتحقق لغيره ، ولا تقتصر على الكتّاب دون الأميين »[2] .

---

(١) دراسات ، د . الرومي ، ص/ ٣٦

(٢) دراسات ، د . الرومي ، ص/ ٣٦ .

إنه إذن التقدير الإلهي الرفيع المتجلي في الحكمة النبوية ، وليس لسبب سطحي لا نقبله على الصحابة ، وفيه من الحكمة أن المثقف اليوم مطالب أكثر من غيره في نشر الدعوة ، وفيه أن ما تيسر اليوم من وسائل سماعية للقرآن والحديث والفقه وغيره يلزم الأمي الحجة في دعوة الآخرين إلى الدين القويم ، فلا يتحجج بأميته .

ومقارنة همة المسلمين في تدوين القرآن ، بهمتهم في تدوين الحديث درس بليغ ، إذ كانت العناية بالأولى وبالأساس وبالدستور الأول ، مع حبهم الشديد للنبي عليه الصلاة والسلام .

وهذا يذكرنا بظاهرة مرضية في بعض المتدينين ، إذ ترى بعضهم يتمسك بنهج الشيخ أقوالاً وأفعالاً ويُعنى بالسلوك الشخصي والتأويل الفردي بعيداً عن النص اللازم : القرآن ، الحديث ، جهود العلماء ، فإن حبّ الشيخ ينبغي ألا يكون تحجّراً ، بل انفتاحاً على المعارف القرآنية والنبوية وتراث الأجداد ، ويكون الأستاذ نافذة على المعارف الإسلامية حتى يكون السلوك صحيحاً وتكون المعرفة موضوعية مستقيمة .

ثانياً ـ الجمع الشهودي الصدّيقي :

أ ـ الدواعي :

غربت شمس النبوة المباركة فانتقل النبي الأكرم عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى ، وصارت خلافة المسلمين إلى أَجَلِّ المسلمين حينذاك أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وجدت في الساحة أحداث جسام شداد ، كان منها ردة بعض العرب ممن لم يدخل الإيمان في قلوبهم .

فكان الصديق رضي الله عنه بالمرصاد أشد ما تكون المسؤولية ، فحارب المرتدين في موقعة اليمامة سنة ١٢هـ ، واستشهد كثير من القرّاء

الحفظة ، وكان من أجَلِّهم سالم مولى أبي حُذيفة رضي الله عنهما الذي ذكر في جُمّاع الصدور في الحديث .

استشهد من هؤلاء البررة سبعون وبعضهم ينتهي بالعدد إلى سبعمئة صحابي ، فهال ذلك المسلمين ، وعزّ الأمر على عمر رضي الله عنه ، المعروف بتطلعه إلى المستقبل وحكمته ، فكان أن اقترح عقب الحادثة المؤلمة جمع القرآن على الخليفة أبي بكر رضي الله عنه كما يصح عند البخاري والترمذي :

روى زيد بن ثابت رضي الله عنه : « أرسل إلي أبو بكر مقتل أهل اليمامة ، فإذا عمر بن الخطاب عنده ، قال أبو بكر رضي الله عنه : إن عمر أتاني ، فقال : إن القتل قد استحرّ يوم اليمامة بقرّاء القرآن ، وإني أخشى أن يستحرّ القتل بالقراء بالمواطن ، فيذهب كثير من القراء ، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن ، فقلت لعمر : كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ قال عمر : هذا والله خير ، فلم يزل عمر يراجعني ، حتى شرح الله صدري لذلك ، ورأيت الذي رأى عمر ، قال زيد : قال أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل لانتّهمك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ ، فتتبع القرآن فاجمعه ، فوالله لو كلّفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن ، قلت : كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ، قال : هو والله خير ، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، فتتبعت القرآن أجمعه من العُسُب واللخاف وصدور الرجال ، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ [التوبة : ١٢٨] حتى خاتمة براءة ، فكانت الصحف عند

أبي بكر ، حتى توفّاه الله ، ثم عند عمر حياتَه ، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنهم »[1] .

يفهم من هذا النص بعض القضايا المهمة ، نلقي عليها الضوء ، فالحديث يبين أولاً منزلة عمر رضي الله عنه وعلوّ شأنه في أمور غيبية كما حدث في الحجاب وتحريم الخمر وأسرى بدر ، ويفهم حرصهم على القرآن الكريم وتوقيهم من إحداث أمر لم يفعله رسول الله ﷺ ، حتى إن الصيغة (كيف تفعل) على لسان أبي بكر رضي الله عنه ، و(كيف تفعلون) على لسان زيد رضي الله عنه ، تؤكد كره التلفظ بفعل المخالفات ولو على سبيل التلفظ ، فكل منهما يبعده عن نفسه فليس يُقال : كيف أفعل ، ولا كيف نفعل .

ومقولة : « هذا والله خير » و« هو والله خير » ما يثبت أن الاجتهاد ينبغي أن يقترن بمصلحة الأمة . وثمة تدرج إلى الراحة النفسية والاستيقان ، من خلال الانتقال من اسم الإشارة إلى ضمير الفصل وكلاهما ثبات الجملة الاسمية ، كما أن قوله : « فتتبعت » يفيد الجهد الكبير الذي ينفي الريبة ويدفع التهم .

وتأكيد زيد أن الصحف بقيت محفوظة في بيت أبي بكر رضي الله عنهما ما يرجح أن ثمة صحفاً كانت في بيت النبوة قبل بيت الخلافة من باب أولى ، وإن كان زيد لم يذكر أنه نقل من المكتوب ، فهو مفهوم لم يُصرّح به لأنه ذكر الجمع من العسب واللخاف ، وصدور الرجال ، فاعتمد المكتوب والمحفوظ ، ثم إنه استعان بتشبيه نقل الجبل

---

(١) البخاري ، التفسير ، ح (٤٤٠٢) ، ومسند أحمد ، ح (٥٧) من مسند أبي بكر ، والترمذي التفسير ، ح (٣١٠٣) ، والنسائي ، فضائل القرآن ، ح (٨٠٠٢) والمعجم الكبير ، ح (٤٩٠١) .

المحسوس ، وهذا يوحي بأنه ينقل المكتوب المحسوس ويعارضه بالمحفوظ .

والملحوظ في النص مراجعة عمر رضي الله عنه لاهتمامه بأمر جماعي ، ثم يتجلى التكاتف بأن يعضد الخليفة حكمه وأفكاره بما عند كبار الصحابة ، وليس ينتقي الصحب على سبيل الأهواء ، فالقوة الفكرية في البيت والقوة العسكرية في الساحة ، ثم إن عمر رضي الله عنه يظهر بكمال التأدب مع أن الخليفة يقرّبه ، يقول : « أرى أن تأمر بجمع القرآن » ولم يقل أرى أن نجمع ؛ مما يفيد التطاول والتساوي بين الرئيس والمرؤوس .

والظاهر في النص اجتماع صفات متعددة تصل إلى الكمال المطلوب في هذه المهمة الجليلة، فالرجل شاب لأن الأمر يتطلب جهداً عضلياً كبيراً، وعاقل لأن الأمر يحتاج إلى تكتيك وإعمال للذهن وقوله : « لانتهمك وكنت تكتب الوحي » يمثل الجانب الخلقي ، وبهذا جمع زيد رضوان الله عليه ما يوثّق به الرواة في الحديث من الضبط والعدالة، فيكون ثقة ، وهكذا نجد أن الصحابة هم الذين ابتكروا أصول الجرح والتعديل .

ويقول محمد حسين هيكل : « وهو لشبابه أقل تعصباً لرأيه واعتزازاً بعلمه ، وذلك يدعوه إلى الاستماع لكبار الصحابة من القراء والحفاظ ، والتدقيق في الجمع دون إيثار لما حفظه »[1] مع أنه يوجد مكتوب إلى جانب ما يحفظه هو وما يحفظه الآخرون وكل هذا نص واحد لا خلاف فيه .

إذن فالنص يؤكد شهادة أبي بكر رضي الله عنه بالخصال الحميدة في

---

(١) حياة محمد ﷺ هيكل ، ص/ ٣٤١ .

زيد ، وكمال دينه وأمانته وشدة ورعه ، ونبوغه وذكائه ، والمعروف عند الصحابة فوق هذا أن زيداً من الحفاظ المشهورين على صغر سنه ، وكان قد شهد العرضة الأخيرة للقرآن[1] ، وهذه ميزة توثيقية لم تكن لأحد .

ومن الصفات التي تخوّل اختيار زيد رضي الله عنه للجمع كونه من أصحاب الفتوى الستة : عمر ، وعلي ، وابن مسعود ، وأُبيّ ، وأبو موسى ، وزيد رضي الله عنهم ، وكان يكتب إضافة للوحي رسائل النبي عليه الصلاة والسلام إلى الملوك .

وكان قد اختصه بتعلم لغة اليهود لمراسلتهم ، وهذا دليل ثقة بفهمه وأمانته ، وأعطاه يوم تبوك راية بني النجار ، وقال : القرآن مقدم وزيد أكثر أخذاً للقرآن ، وتولّى قَسْمَ غنائم اليرموك ، واشترك في واقعة اليمامة ورُمي بسهم لم يضرّه[2] .

وينقل أبو حيان التوحيدي عن الشعبي : « وضع زيد بن ثابت رجله في الركاب ليركب ، فأمسكه له ابن عباس رضي الله عنهما ، فقال له : تنحَّ يا ابن عم رسول الله ﷺ ، فقال : إنا هكذا نصنع بالعلماء ، أو قال : بأهل بيت نبينا »[3] .

وكان يقول عنه : إنه ـ زيد ـ من الراسخين في العلم ، ومن المعروف أن ابن عباس رضي الله عنهما ابن عم رسول الله ﷺ ، وكان يلقب برباني الأمة ، وكان قد دعا له : « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » كان مع

---

(١) انظر المستدرك : ٢/ ٢٢٩ .

(٢) الإصابة لابن حجر : ٣/ ٢٣ ، وأخبار القضاة ، وكيع محمد بن خلف بن حيان : ١/ ١٠٥ـ ١٠٨ ، ولطائف المعارف للثعالبي ، ص/ ٤٠ ، والمستدرك : ١/ ٢٧٥ ، وفتوح البلدان للبلاذري : ٣/ ٥٨٣ ، وتهذيب الأسماء واللغات للنووي : ١/ ٢٠١ .

(٣) البصائر والذخائر للتوحيدي : ١/ ١١٢ .

هذا هو وأبو عبد الرحمن السّلمي الصحابي القارئ ممن قرؤوا على زيد رضي الله عنهم[1] .

ومن تجليات إتقانه في الحفظ وشهادة كبار الصحابة له ما روي عن أبي عبد الرحمن السلمي رضي الله عنه أنه « قرأ عامة القرآن على عثمان بن عفان رضي الله عنه فقال له : إنك تشغلني عن النظر في أمور الناس ، فامض إلى زيد فإنه فارغ لهذا الأمر يجلس فيه للناس ، واقرأ عليه فإن قراءتي وقراءته واحدة ، ليس بيني وبينه فيها خلاف ، فمضى إلى زيد ، فكان يلقى علياً رضي الله عنه ، فيقول له : عليك بزيد بن ثابت ، قال : فأقمت على زيد ثلاث عشرة سنة أقرأ عليه فيها القرآن »[2] .

ولكن النص يؤكد تردد أبي بكر رضي الله عنه في الموافقة على جمع القرآن ، وقد يتساءل الدارس ، لم هذا التردد ، والأمر خير للأمة وزيادة صيانة لكتاب الله عز وجل ؟ والحقيقة أن موقف أبي بكر يدل على حضور القلب والعقل إزاء ظاهرة جماعية ، فدلّ على تورع قلبي ومنهج عقلي حكيم ، ولا نظن الحكمة إلا من آثار التقوى التي تحلّى بها هذا الخليفة الراشدي الفرد .

وذكر الأستاذ الصابوني جواباً عن هذا التساؤل المتوقع ، فقال : « خشي أن يتساهل الناس في استظهار القرآن وحفظه غيباً ، ويعتمدوا على وجوده في المصاحف ، فتضعف نفوسهم عن الحفظ ، وتصبح رغبتهم ضعيفة في حفظه واستظهاره ، اعتماداً على أنه مسطَّر وموجود في مصاحف مطبوعة يمكنهم قراءة القرآن بها ، أما قبل أن توجد المصاحف

---

(١) الكواكب الدرية ، الحداد خلف الحسيني ، ص/١٨ ، وتذكرة الحفاظ للذهبي : ١/ ٢٩ـ٣٨ .

(٢) مقدمتان ، ص/ ٢٥ .

فقد كان الجميع يسعون جهودهم لحفظ القرآن ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان رجلاً وقافاً عند حدود الشرع ، مقتفياً لآثار الرسول ﷺ ، فقد خشي أن يكون بعمله هذا مبتدعاً شيئاً لا يحبه رسول الله ﷺ »[1] .

ونؤكد أن عملية الجمع كانت بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام ببضعة شهور ، وقد رجح ابن الأثير المؤرخ (٦٣٠هـ)[2] أن وفاة النبي عليه الصلاة والسلام كانت في ربيع الأول (١١هـ) ، وكانت موقعة اليمامة آخر هذه السنة ، والفراغ منها في (١٢هـ) ، فالفترة وجيزة لم تعهد في تدوين كتاب مقدس قبل القرآن الكريم ، مما يؤكد كمال الثقة بعمل زيد رضي الله عنه .

ويذكر المحاسبي في كتابه « فهم السنن » وهو كتاب مفقود أن : « كتابة القرآن ليست بمحدثة ، فإنه ﷺ كان يأمر بكتابته ، ولكنه كان مفرّقاً في الرقاع والأكتاف والعسب ، وإنما أمر الصديق بنسخها من مكان إلى مكان مجتمعاً ، وكان ذلك بمنزلة أوراق وجدت في بيت رسول الله ﷺ فيها القرآن منتشراً ، فجمعها جامع وربطها بخيط ، حتى لا يضيع منها شيء »[3] .

إنه مجرد جمع وليس فيه انتظار ما تجود به الذاكرة على مدى الشهور والسنوات ، ويمكن أن يسمى « نسخاً » كما يقول المحاسبي ، فلا مجال وفق الزمن الضيق والتقوى الحاضرة والشهود الآلاف ، لا مجال لدعوى اختراق النص زيادة ونقصاناً .

---

(١) التبيان في علوم القرآن ، محمد علي الصابوني ، ص/ ٦١ـ ٦٢ .
(٢) الكامل في التاريخ ، ابن الأثير : ٢/ ٣٦٦ .
(٣) البرهان ، الزركشي : ١/ ٢٣٩ .

ب ـ طبيعة الجمع :

إن هذا المصحف لم يكن معجماً ، وقد خلا من أسماء السور والفواصل ، كما أنه لم يكن مرجعاً للقراءة أو المراجعة ، بل هو أصل محفوظ يقي الحفظ الشفوي ، وذلك أمر بدهي ، إذ لم يُعهد أن تراجع الصحابة في توثيق آية وحفظها أو اختلفوا في قراءة ، بل إن شغفهم بالقرآن خوّلهم إلى الاعتماد على النفس ، فراجعوا نبيّهم عليه الصلاة والسلام في الفهم لا في الحفظ كما أسلفنا . وكان العمل جماعياً ، فكل من تلقى من رسول الله عليه الصلاة والسلام شيئاً من القرآن جاء به للخليفة ، فلا يُسجل إلا ما كتب بين يديه عليه الصلاة والسلام ، وما ثبت أنه عرض عليه عام وفاته ، مشتملاً على الأحرف السبعة ، وكانت الآيات والسور على الترتيب كما تُلُقِّي عن الرسول ﷺ[1] ، وإن كان ابن حجر لا يرى ترتيب السور .

وما قيل من أن ليس في هذه الصحف أو المصحف ما هو منسوخ التلاوة قول ضعيف لا يثبت ، لأنه يحتاج أولاً إلى إثبات هذا النوع من النسخ وهذا ما نعود إليه في مبحث خاص .

وقد شارك عمر زيداً في عملية الجمع ، كما يؤكد ابن أبي داود إذ أخرج : « قدم عمر رضي الله عنه عنه ، فقال : من كان تلقى من رسول الله ﷺ شيئاً من القرآن فليأت به ، وكانوا يكتبون ذلك في الصحف والألواح والعسب ، وكان لا يقبل شيئاً حتى يشهد شهيدان »[2] .

وورد أن أبا بكر قال لعمر وزيد رضي الله عنهم : « اقعدوا على باب

---

(١) تاريخ عمر بن الخطاب ، ابن الجوزي ، ص/١٢٩ ، وفتح الباري : ٩/ ١٠ وراجع لطائف الإشارات لفنون القراءات للقسطلاني .

(٢) الإتقان للسيوطي : ١/ ٥٨ .

المسجد ، فمن جاءكم بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه »[1] .

ويفسر أبو الحسن السخاوي (٦٤٣هـ) الشاهدين برجلين عدلين ، قال في كتابه « جمال القراء »[2] : « المراد أنهما يشهدان على أن ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول الله ﷺ أو المراد أنهما يشهدان على أن ذلك من الوجوه التي نزل بها القرآن » ، إلا أن ابن حجر العسقلاني يؤول عقلياً فيقول : « وكأن المراد بالشاهدين : الحفظ والكتابة »[3] .

ولا يعني هذا توثيق الآيات ضمن اثنين أو ثلاثة من الناس ، فثلاثة يأتون بقول واحد ، والمتلقي زيد رابع ، والمنسّق عمر خامس ، والآمر الخليفة سادس ، وآخرون لم يذكروا من الجَمَعَة الحَفَظة والكاتبين للوحي ، ثم إنه يُنتخب اثنان للشهادة ، وثمة آخرون خلف النص ، فالتواتر قائم قبل نسخ المكتوب ، ونص السخاوي رحمه الله يؤكد الاستيثاق من اختلاف القراءات فقط .

ويقول الإمام السيوطي : « إن زيداً كان لا يكتفي بما كان مكتوباً حتى يشهد بما تلقّاه سماعاً » ، وتأويل ابن حجر هو الراجح إذن ، أو أن المكتوب لا يقبل إلا بشهادة عدلين ، لأن المحفوظ يكون بالتلقي ، فإذا شك زيد مثلاً في شيء من القرآن سأل حافظاً أو اثنين ، أو نظر في صحيفتين أو صحيفة مكتوبة حتى يجزم على ما ثبت عنده » .

وكان من دواعي التشدد فيما يتناقله الدارسون اليوم استبعاد آية الرجم

---

(١) رواه الأحوذي في شرح الترمذي في كتاب جمع القرآن ، باب سورة التوبة ، وقال ابن حجر : رجاله ثقات مع انقطاعه ، فتح الباري : ٩/ ١٥ .

(٢) جمال القراء لأبي الحسن السخاوي : ١/ ٢٠٠ .

(٣) فتح الباري : ٩/ ١٦ .

التي أتى بها عمر عن رجم الزانية ، لأنه كان الشاهد الوحيد كما يقول الليث بن سعد[1] .

ومن مظاهر هذا النهج الصارم ما روي في « المصاحف » لابن الأنباري من أن حفصة رضي الله عنها قالت : إذا انتهيتم إلى هذه الآية : ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ [البقرة : ٢٣٨] فأخبروني ، فلما بلغوا قالت : اكتبوا : « والصلاة الوسطى هي صلاة العصر » ، فقال لها عمر أبوها : ألك بينة بهذا ؟ قالت : لا ، قال : فوالله لا ندخل في القرآن ما تشهد به امرأة بلا إقامة بينة »[2] مع ترجيحنا لضعف الرواية ، وأن القراءة تفسيرية ، ولا قرآنية للمذكور .

مثل هذا الترف الذهني يعد شواهد على الشك في النص عند بعض الدارسين المعاصرين ، مثل د . تيزيني ، إذ قال : « إن زيد بن ثابت هنا ، يعلن أنه أقر ما وجده عند أبي خزيمة الأنصاري من القرآن ، بالرغم من أنه لم يجد ذلك عند غيره ، أي إن زيداً انطلق في هذا من الإقرار بإمكانية منح المصداقية الوثيقية لحدث ما ، دون شاهد يشاركه الرأي فيما يقول به ، فإذا كان ذلك ممكناً ، فلماذا رفض زيد أخذ ما كان لدى عمر وهو آية الرجم »[3] .

وهكذا وحّد الباحث بين حادثتين ، وصار النصان على المستوى نفسه من الثقة ، لا فرق بين آحادي عند عمر رضي الله عنه وحده إن صح الحديث عن آية الرجم التي لا يعرفها زيد ولا غيره ، وبين آخر التوبة مما يعرفه

---

(١) الإتقان : ١/ ٢٠٦ وانظر مثلاً اللآلئ الحسان ، لاشين ، ص/ ٥٨ ، والمدخل د . دراز ، ص/ ٣٧ .

(٢) الدر المنثور : ١/ ٣٠٢ـ٣٠٣ .

(٣) النص القرآن ، د . طيب تيزيني ، ص/ ٤٠٦ .

الجميع وزيد نفسه وأبو بكر رضي الله عنهما ، فنص التوبة ليس آحادياً .

ولو صحّ هذا عنه لاقتضى الأمر أنه سمع الآية من النبي عليه الصلاة والسلام ، وهل نتصور أنه يتلقى القرآن وحده من النبي عليه الصلاة والسلام بعيداً عن الصحابة ، فلا شك إذن بوجود شاهد معه ، ولذلك نخلص إلى أن هذه أقاويل ، بل هذه الخزعبلات بعينها تلهج بها ألسنة المدّعين المنهج القويم ليشوشوا علينا ديننا ، وما يزيدون المسلمين إلا إسلاماً .

فلماذا لا يقرأ هؤلاء ولا يطلعون على كتابات الأبرار من عندنا ، ولماذا اللهاث وراء المزوّرين والجهلة ، فليقرأ كتاباً معاصراً ـ إن كان يصعب عليه شروح الحديث المستفيضة للدكتور زرزور ، ويجد فيه : عن قوله : « لم أجدها مع أحد غيره » لا يجوز تفسيره بأنه لم يجدها محفوظة ، لأنه كان رضي الله عنه يبحث عن آية يحفظها « هو »[1] .

ولو عاد إلى شرح صحيح البخاري لوجد روايات موثقة يذكرها ابن حجر العسقلاني ، تؤكد أن أبا خزيمة لم ينفرد بالآيتين ، بل كان معه عمر وزيد وعثمان وأُبيّ رضي الله عنهم[2] .

قال الزركشي : « وقول زيد : لم أجدها إلا مع أبي خزيمة ، ليس فيه إثبات القرآن بخبر الواحد ، لأن زيداً كان سمعها وعلم موضعها في سورة الأحزاب بتعليم النبي ﷺ ، وكذلك غيره من الصحابة ، وتتبعه للرجال كان للاستظهار لا لاستحداث العلم ».. وقول : « لم أجدها مع غيره » ، يعني ممن كانوا في طبقة خزيمة ممن لم يجمع القرآن[3] .

---

(١) دراسات قرآنية ، د . عدنان زرزور ، ص/ ٩٤ـ ٩٥ .

(٢) فتح الباري : ٩/ ١١ـ ١٦ .

(٣) البرهان ، ١/ ٣٠١ .

ولم لا يراجع هؤلاء شرح الحديث ، ليَبين أن المراد أنه لم يجدها مكتوبة إلا عند أبي خزيمة ، وذلك لا يتعارض مع أنه محفوظ عند جمع غفير بلغ حد التواتر ، وعلى كل حال لا يعني تأويل الشاهدين بالكتابة والحفظ ، لا يعني الاكتفاء بشاهد واحد على الكتابة ومثله على الحفظ ، بل يريد زيد أن أبا خزيمة يشهد بتلقي الكتابة عن النبي عليه الصلاة والسلام ، ولا شك أنها مكتوبة عند غيره ، فهو ينفرد بالشهادة .

ويروي عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما ، : « أتى الحارث بن خزيمة بهاتين الآيتين إلى عمر ، قال : من معك على هذه ؟ قال : لا أدري والله إني أشهد لسمعتها من رسول الله ﷺ »[1] مع ما نرى من الراوي إسحاق وتدليسه فرجال الحديث ثقات ، وهو يعضد وجود الآية عند آخرين غير أبي خزيمة .

ونتساءل بعد هذا : لم تمّ تخصيص آخر آيتين من التوبة مع إقرارنا بأنهما من آخر ما نزل ؟ هل هما نزلتا معاً باستقلال عن آيات أخرى ؟ ولكن نفهم أن زيداً تفقدهما مما يدل على أنه يعرفهما ، لكن السؤال هل جاءه أبو خزيمة بآيتين في صحيفة مستقلة وما معنى الاستقلال ؟ وهذا على كل حال لا يخدش التواتر .

إنها براهين ساطعة عميت عنها أنظار المستشرقين وأتباعهم ، وراحت تتلقف مرويات واهية منها ما روي عن عمر رضي الله عنه : « لو كان ثلاث آيات لجعلتها سورة على حدة ، فانظروا سورة من القرآن ، فضعوها فيها ، فوضعتها في آخر براءة »[2] .

---

(١) المسند للإمام أحمد : ٢/ ١٠ .

(٢) المسند للإمام أحمد : ٣/ ٢٤٠ .

والحديث فيه كثيرمن العلل تجعلنا نستنكره ، وهو مخالف للشرع ، إذ لا يملك أحد أن يتدخل في ترتيب الآيات وكان قد تم الترتيب في حياته ﷺ ، وهل نقبل قولة على عمر رضي الله عنه في اختراع سورة جديدة ؟! ثم إن زيداً وضعها قسراً وتذييلاً لبراءة كما في هذا النص المرجوح مع أن الأحاديث الراجحة الصحيحة تؤكد أنه افتقد الآيتين وهو يعرف أنهما من براءة .

وهذا ليس قاصراً على المصنفات القديمة ، فنحن نقرأ في كتاب معاصر زلة قلم لأحد المدافعين عن فكر الإسلام نقرأ عن ترتيب الآيات في جمع أبي بكر : « قد تستثنى الآية الأخيرة من سورة النساء من هذه القاعدة ـ وضع الآية في مكانها ـ لأنها نزلت قبل وفاة الرسول ﷺ بوقت قصير ، بحيث لم يتمكن الصحابة من الاستعلام منه عن المكان الذي كان ينبغي وضعها فيه ، فأضافوها في نهاية السورة التي تبحث في الموضوع »[1] .

وهل يظن الدكتور دراز أن ما بين نزول هذه الآية وبين الوفاة أقل من ساعة حتى لا يتسنى لهم سؤاله ؟ وآخر ما نزل على الإطلاق آية البقرة كان قبل وفاته بتسع ليال .

ج ـ مناقشة :

على سبيل الجمع المتناقض والثقافة التجميعية يسرد ابن أبي داود والسيوطي روايات تذهب إلى أن عمر رضي الله عنه أول من جمع القرآن في المصحف ، ثم ذكر الدكتور عبد السلام هارون المشهور بتحقيق كتب التراث رحمه الله « أن عمر أول من جمع القرآن في مصحف ، وتعددت

---

(١) مدخل إلى القرآن ، د . دراز ، ص/ ٣٥ ح .

مصاحف المسلمين حتى جمعهم على مصحفٍ واحد »[1] .

وثمة رواية واهية عند أبي داود نصها : « أن عمر سأل عن آية من كتاب الله ، فقيل : كانت مع فلان قُتل يوم اليمامة ، فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، وأمر بجمع القرآن ، فكان أول من جمعه في الصحف »[2] .

وهكذا يبدو اهتمام عمر رضي الله عنه بالمكتوب فحسب وهذا عجيب ، ولم تذكر روايات أخرى أن ثمة آية كانت مع شهيد قبل جمع أبي بكر رضي الله عنه ، وكان بمقدور أي صحابي أن يكتبها له ما داموا عرفوا عما يسأل من القرآن ، ولم تؤكد الرواية أن فلاناً كان من كتّاب الوحي ، ولو فرضنا فهو ليس كاتباً وحده .

وتذهب بعض الروايات إلى أن الجمع بدأ في عهد أبي بكر وتم في عهد عمر رضي الله عنهما ، وهذه مستبعدة ، لأنها تحتم أن الجمع استغرق ما يزيد على السنة أو السنتين ، وهو نسخة واحدة ، ثم إنها روايات لا تثبت بإزاء رواية البخاري السابقة التي تؤكد الجمع لأبي بكر رضي الله عنه ، وفي بعض هذه الروايات انقطاع كما يثبت ابن حجر[3] .

لكن هذه الروايات لا تخالف رواية البخاري إذ المقصد فيها أن عمر رضي الله عنه صاحب فكرة الجمع ، أو الجامع على المستوى النظري ، لكن أصحاب الأدمغة الجامدة والقلوب الحاقدة يتمسكون بهذا السند المنقطع مع ادعائهم المنهج العقلي ليشككوا بتوثيق القرآن ، فهذا

---

(١) راجع المصاحف ، ص/ ٢٠ ، والإتقان : ١/ ٥٩ ، وتحقيق النصوص ونشرها د . هارون ، ص/ ١١ نقلاً عن لمحات في علوم القرآن ص/ ١١٠ـ ١١١ .

(٢) تاريخ عمر لابن الجوزي ، والمصاحف لابن أبي داود ، ص/ ١٠ ، والدر المنثور : ١/ ٣٠٢ ، التاريخ الكبير لابن عساكر : ٥/ ١٣٣ .

(٣) فتح الباري : ٩/ ١٠ .

« شفالي » قد أيد الشك في صحة الرواية القائلة إن أبا بكر رضي الله عنه الذي أمر بجمع القرآن[1] .

وثمة قائلون قدماء بأن علياً رضي الله عنه أول من جمع القرآن ، قال اليعقوبي (٢٩٢هـ) : « وروى بعضهم أن علي بن أبي طالب عليه السلام كان جمعه لما قبض رسول الله ﷺ ، وأتى به يحمله على جمل ، فقال : هذا القرآن جمعته ، وكان قد جزأه سبعة أجزاء : جزء البقرة ، جزء آل عمران ، جزء النساء ، جزء المائدة ، جزء الأنعام ، وجزء الأعراف ، جزء الأنفال ، وذلك باعتبار أول كل جزء ، ويروي غير واحد أن مصحف علي كان على ترتيب النزول وتقديم المنسوخ على الناسخ »[2] .

لا أدري لماذا تسرد هذه المقولة التاريخية البعيدة عن منهج الرواية وكتب المحدثين من غير مناقشة ؟! فنقول : لماذا يأتي بالمجموع على الجمل أكان يزن وزناً ثقيلاً ؟ أم لأجل التقديس يُذكر الجمل ؟ وكيف يجعله سبعة أجزاء ، وسورة البقرة لا تمثل إلا ثلاثة أجزاء من أجزاء القرآن الثلاثين ، أين سائر القرآن ؟! .

وإذا كان الجزء الأول للبقرة ، فكيف كان بحسب النزول ، فالجزء الأول ينبغي أن يسمى جزء العلق ، وهل ينزع آية من البقرة ، ويقدمها على غيرها لكونها منسوخة ؟

فالاضطراب واضح في متن الرواية ، ومخالفة المعهود والمشاهد الجلية .

وهذا الخبر ورد في أمكنة أخرى لا يفنده ناقلوه إلا أن أبا بكر

---

(١) تاريخ الأدب العربي ، بروكلمان : ١/ ١٤٠ ، ٢٢٦ .

(٢) تاريخ اليعقوبي : ٢/ ١٥٢ ولم يراجع هذه المقولة كل من الزنجاني ، ص/ ٢٦ ، والأنباري ، ص/ ٨٥ .

السجستاني (٢٧٥هـ) نقل عن أشعث عن ابن سيرين (١١٠هـ) أن علياً رضي الله عنه قد جمع القرآن وانتهى منه أيام المبايعة لأبي بكر رضي الله عنه .

لكن السجستاني يردف بأن أشعثاً انفرد بذكر المصحف وهو لين الحديث وبيّن أن الجمع بمعنى تمام الحفظ ، لذلك لا يعتد بما أورده ابن النديم من أنه رأى مصحفاً بخط علي رضي الله عنه يتوارثه بنوه[١] ، إذ لا يعدو هذا المصحف نسخة كتبها بعد مصاحف عثمان رضي الله عنه وإلا كيف يكون عند أتباع معاوية رضي الله عنه مصاحف ترفع على الرماح في المعركة ولا يكون عنده مصحف خاص به ؟

ففي النص المزعوم : « لما كان بدء خلافة أبي بكر قعد علي بن أبي طالب في بيته ، فقيل لأبي بكر : قد كره بيعتك ، فأرسل إليه ، فقال : أكرهت بيعتي ؟ فقال : رأيت كتاب الله يزاد فيه فحدثت نفسي ألا ألبس ردائي إلا لصلاة حتى أجمعه ، قال له أبو بكر : فإنك نعم ما رأيت »[٢] .

وهذا النص يناقَش من داخله ، فالعزم على كتابة القرآن ستستغرق أياماً طويلة ، فإذا قدرنا مثلاً حجم القرآن بستمئة صفحة ، وينقل كل يوم عشر صفحات ، لكانت النتيجة أن يتأخر عن مصافحة الخليفة شهرين وهو في بلده ، ولماذا يعزم على الجمع وثمة أمر مهم وهو المبايعة ، وإذا كان الجمع قضية جماعية للأمة فلماذا لا يخبر بها الخليفة وهو يبايعه ؟

ولم يرد في نص آخر الزيادة في القرآن ، إن هذا مدعاة لشك المستشرقين وضعاف الإيمان ، إذ كيف يسمح بزيادة وهي جريمة ثم

---

(١) المصاحف ، ابن أبي داود ، ص/٦ ، والفهرست ، ص/٤١ـ٤٢ .
(٢) الإتقان : ١/٥٩ .

يخفيها عن الخليفة ؟ وكنت أتمنى أن ينتقد متن هذه الرواية ناقلوها الذين تركوها على عاهنها زاداً للمتصيدين[1] .

فالأسلم والأصح الحديث الذي ينقض كل ما سبق ، وهو الحديث الذي يبدأ به الدارسون القدامى عادة ، ثم يسردون الضعيف المربك ، إذ ورد عن علي رضي الله عنه : « أعظم الناس أجراً في المصاحف أبو بكر ، رحمة الله على أبي بكر ، هو أول من جمع ما بين اللوحين »[2] .

وينقل ابن النديم عن مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه متداول بنسخ كثيرة وأنه يخلو من الفاتحة والمعوذتين ، وذكر مصحفاً منسوباً إلى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما كذلك يذكره الشهرستاني (٥٤٨هـ) في مقدمة تفسيره « مفاتيح الأسرار ومصابيح الأبرار » ويذكر مصحفاً لأُبيٍّ بن كعب .

وينقلون عن السيوطي[3] أن سالماً مولى أبي حذيفة رضي الله عنهما أول من جمع القرآن في مصحف ، ولا نحمله على أنه أول الجامعين بأمر من أبي بكر رضي الله عنه ، كما يؤول الدكتور إبراهيم الأبياري ، لأن الخليفة كان متريثاً في قبول فكرة عمر رضي الله عنه ، وهذا يناقض أمره لغيره بالجمع ، ويمكن أن نؤول بأنه سمح لبعض الصحابة بكتابة مصاحف خاصة بهم بعد جمعه .

لذلك نؤكد أن الاهتمام بهذه المصاحف عدداً ومضموناً وترتيباً ، يعد من الترف الذهني الذي يشتت الأمة ، ويبعث على الشك ، ولا نودّ أن

---

(١) مثل الأستاذ الصابوني في التبيان ، ص/ ٦٤ـ ٦٥ .

(٢) المصاحف ، ص/ ٥ ، الإتقان : ١/ ٥٩ ، فتح الباري : ٩/ ١٢ .

(٣) الإتقان : ١/ ٥٩ ، والفهرست ٢٩ـ ٤٠ ، وتاريخ القرآن للزنجاني ، ص/ ٢٦ ، وتأريخ القرآن ، د . إبراهيم الأبياري ، ص٨٦ .

تسير الدراسات على منهج الدكتور إبراهيم الأبياري الذي كان يضع جداول لترتيب السور في كل مصحف كما أسلفنا في مبحث نسق الآيات والسور ، كما لا نود سرد الكتب[1] التي عرضت للمصاحف السابقة لمصحف عثمان رضي الله عنه ما دامت ملغاة ، إذ كيف تكون ملغاة ، ثم تأتي دراسات تتحدث عن مضمونها وأنها متداولة في العصر العباسي ؟

فهذه الكتب من التراث وليس كل تراث شيئاً مقدساً ، فإذا نظر الغربي ووجد ثمانية كتب حول هذه المصاحف المزعومة ، شك بمصداقية النص ودعا إلى مسألة اختراق القرآن ، أو ظن أو رجّح وجود نسخ للقرآن مختلفة كالأناجيل .

وقد أثارت دائرة المعارف الإسلامية الكافرة الكفرية شبهة حول استبقاء المصحف عند حفصة أم المؤمنين دون عثمان رضي الله عنه ، فادعى « بلاشير » أن المصحف كان ملكية خاصة لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما بصفتهما الشخصية لا للخليفة رئيس الجماعة .

قال بلاشير : « ولقد دل كل شيء إجمالاً على أن الخليفة الأول وصاحبه حين أحسّا مغبة ألا يكون لديهما نص كامل للوحي ، كلّفا أحد كُتّاب الوحي ممن سبق أن استخدمه محمد ﷺ في هذه الوظيفة بأن يهيئه لهما ، ولنا أن نتساءل عن إمكان أن تصدر محاولة عمر مؤيدة أو معارضة بسلطة أبي بكر عن سبب آخر : هو الرغبة في تملك نسخة شخصية من الوحي ، كما كان يملكها صحابة آخرون للنبي »[2] .

ويقول الدكتور فضل حسن عباس : « وقد شايعه في هذه الادعاءات الدكتور مصطفى مندور ، بل زاد أحياناً كلمات خلال التعبيرات التي

---

(١) تأريخ القرآن ، د . الأبياري ، ص/ ١١٤ .

(٢) المدخل إلى القرآن ، ص/ ٣٣ـ ٣٤ .

قبسها عنه ، فإذا قال بلاشير : إنها كانت ملكية شخصية ، قال مندور : حفصة ورثتها على أنها ذمة مالية شخصية ، ونقول : ماذا عن انتقالها إلى عمر بعد أبي بكر ، ثم ما القيمة لنسخة من القرآن لدى رجل جمعه حفظاً على عهد رسول الله ﷺ ، وفي عصر كان المحفوظ فيه أوثق ثبوتاً وأعظم حياة في وجدانه وعلى لسانه إن لم يكن ذلك من أجل الأمة بأسرها »[1] .

فإذا كان الباحث من الصنف الذي لا يميز وجه القرابة الأسرية بين الخليفتين ، فهو جاهل تماماً فلماذا يرث عمر أبا بكر هل هو وريث شرعي ليحتفظ بذمة مالية ؟ وما علاقة المال بالأمر ؟ أكان القرآن يباع ويُشرى ، أيّ ضلال هذا ممن يدعي الفهم الأخير !

وهل يستطيع صحابي أن يتفاخر ويتعالى على الخليفة بأنه لا يمتلك نسخة خطية ، أيعقل هذا من صحابي ، لو كانوا هكذا ما ذهبوا إلى جهاد ، وإذا كان الخليفة يحتفظ بالنص لدفع التباهي وستر الحال ، لم يعد هناك جمع الأمة على نص ، بل هناك إهمال ونفاق تبعاً لتصوّر المتطفلين على البحث العلمي !

وقد وضعت الصحف عند حفصة رضي الله عنها ، ليبقى أمر اختيار الخليفة شورى ، فلو أودعها عند عثمان رضي الله عنه لكان هذا إقراراً منه بمبايعته بالخلافة بعده بل أودعها عند ابنته ، ولهذا حكمة جليلة تُعضد بما عرفت به أم المؤمنين من خاصية القراءة والكتابة ، فهي أهل لحفظ الكتاب ، فضلاً عن حفظها للقرآن عن ظهر قلب[2] .

أما مصير هذا المصحف فهو الإتلاف على يد مروان بن الحكم

---

(١) إتقان البرهان : ١/ ٢٢٦ .

(٢) دائرة معارف الشعب : ١/ ٢٠ ليبيا ، وفي تاريخ القرآن د . محمد الدسوقي ، ص/ ٥٢ ، ودراسات قرآنية د . عدنان زرزور ، ص/ ٩٦ .

(٦٥هـ) بعد أن انتشرت مصاحف عثمان رضي الله عنه في الأمصار ، قال سالم بن عبد الله بن عمر رضي الله عنهم : « فلما توفيت حفصة ورجعنا من دفنها ، أرسل مروان بالعزيمة إلى عبد الله بن عمر ليرسلنّ إليه تلك الصحف ، فأرسل بها عبد الله بن عمر إلى مروان ، فغُسلت غسلاً ، ثم شققت ثم أحرقت ، ثم قال : إنما فعلت هذا لأني خشيت إن طال بالناس زمان أن يرتاب في شأن هذه الصحف مرتاب . أو يقول : إنه كان شيء منها لم يُكتب »[١] .

ويذكر جاك بيرك صاحب كتاب « حينما كنت أعيد قراءة القرآن » شبهات رخيصة كفكره المعوج ، إذ كيف يرتضي أن الجمع لم يستهدف سوى أطول سبع سور ولم يقدر لسائر السور أن تنقسم في أثناء الجمع ، كما ينقل عن ابن عطية وكأنه القول الفصل إن صدق في النقل « بيرك » هذا .

ولم يصح أنه استقر الرأي على الاعتماد على ذاكرة الرواة ، بسبب ما يمتاز به الصوت في المجتمع العربي حينذاك من أهمية ، وكأنه لا يوجد صحف ولا كتّاب وحي ، ومن أخبره أن تلك الصحف مفككة ، وأن ثمة صعوبات جدَّت في الجمع حالت دون عملية الجمع الحقيقي الكامل[٢] .

واكتشف الدكتور طيب تيزيني علامةَ عصره علي الميلاني ، ليكشف به عن اختراقات للقرآن وتحريف سكت عنه العلماء والأمة جمعاء ، إلا هذا الملخص ، الذي زعم أن الجمع خضع لمصالح مختلفة سياسية ، مما أدى للزيادة والنقصان .

كما يؤسف أن يفيد من هنري ماسيه بنظرته العدوانية للإسلام

---

(١) المصاحف لابن أبي داود ، ص/ ٢٤ـ ٢٥ .

(٢) حينما كنت أعيد قراءة القرآن ، جاك بيرك ، ص/ ٧ ، وطيب تيزيني ص/ ٦٤ .

وما تفرزه من خبال ، فالتحريف موجود « رغم » أن الأدلة على اختراق المتن القرآني تقدم نفسها بنفسها في تلك « الصحاح » ، أما تفسير ذلك الصمت فلعله يعود إلى أسباب كثيرة ، يبرز الاثنان التاليان منها بأهمية خاصة ، الأول منهما يتمثل في الإجماع من قبل كل الأوساط الإسلامية تقريباً على الإقرار بأساس وحيد للنص القرآني ، ذلك الإجماع الذي تحقق في القرن الحادي عشر بعد صراعات مريرة . أما السبب الثاني فيكمن في انطلاق من تلك الأوساط من تفسير معين أفضى إلى المطلوب هنا لمثل الآيتين الملزمتين لها بصفة كونها على نحو أو آخر أوساطاً إسلامية ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴾[1] [فصلت : ٤١] .

وكيف يفهم مطلع أن المسلمين تصارعوا في النص وتوثيقه ، فالصراعات المريرة ليس لها علاقة بالنص ، ويصح أن نقول : لها علاقة بالتأويل فقط ، ومن أخبر العلامة ماسّيه عن إجماع في القرن الحادي عشر قبله كان النص إذن « نصاً احتمالياً » و« نصاً مغيباً » .

وكيف تقتضي المنهجية الموضوعية أن ينقل عن طرف واحد يدعي ما يريد عن الطرف الآخر ، فيذكر التحريف والجريمة الجماعية في الصمت ، وهل يعرف علي الميلاني ومحمد جواد مغنية كتب الطرف الآخر ، حتى يؤكدا وجود نصوص حديثية صحيحة في الكتب الستة عن التحريف ؟ وماذا ينتظر الباحث من غربي يصطاد في الماء العكر ، فيفيد من الصراع الذي يفقد الموضوعية !

ومما نظنه من فتات الغرب ما قاله أحمد أمين رحمه الله : « وفي عهد أبي بكر أمر بجمع القرآن ، ولكن لا في مصحف واحد ، بل جمعت

---

(١) الإسلام ، هنري ماسيه ، ص/١٣٦ ، وتيزيني ، ص/٦٥ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩٢ .

الصحف المختلفة التي فيها آيات القرآن وسوره ، وكتب منها ما كان في صدور الرجال »[1] ، فهكذا يشكك بأن الجمع اكتفى بالحفظ لبعض القرآن ولم يبحث له عن مكتوب .

كذلك من العبارات المربكة التي تصدر عن مخلصين ما قاله الدكتور إبراهيم الأبياري : « غير أن هذا المصحف الرسمي لم يأخذ طريقه الرسمي إلى الأمصار ، ولعل مقتل عمر هو الذي أخّر ذلك »[2] .

فهكذا يظن الباحث أن مقتل عمر رضي الله عنه كان بعد جمع القرآن مباشرة ، ثم إن المصحف الرسمي الذي جمعه أبو بكر رضي الله عنه لم يكن للمراجعة ولا للنشر في الأمصار .

ونختم البحث هنا بكلام منصف من المستشرق الإنكليزي « سير وليم موير » وعلى المنهجيين والعقلانيين ، أن يحتذوا حذوه ، قال : « إن القرآن بمحتوياته ونظامه ينطق في قوة بدقة جمعه ، فقد ضُمت الأجزاء المختلفة بعضها إلى بعض ببساطة تامة ، لا تعمُّل فيها ولا تكلف ، وهذا الجمع لا أثر فيه ليد تحاول المهارة أو التنسيق ، وهو يشهد بإيمان الجامع وإخلاصه لما يجمع ، فهو لم يجرؤ على أكثر من تناول هذه الآيات المقدسة ، ووضع بعضها إلى جانب بعض ، والراجح أن العالم كله ليس فيه كتاب غير القرآن ظل اثني عشر قرناً كاملاً »[3] .

إننا ندعو إلى الصدق مع النفس بدلاً من ازدواجية مضحكة لأجل أغراض تافهة ، كالتقزم للغرب ، وحب الظهور ، أو ندعو إلى الاطلاع والتفكير بدلاً من التكفير ، ونستحضر في أذهاننا جذور المستشرقين

---

(١) فجر الإسلام ، ص/ ١٩٥ .
(٢) تأريخ القرآن ، إبراهيم الأبياري ، ص/ ١١٠ .
(٣) الصديق أبو بكر ، محمد حسين هيكل ، ص/ ٣٢٢ ، ٣٥١ .

الذين يُعتمد عليهم في النقد اللاعلمي ، ونسأل عن غاياتهم ، وعمّن يستفيد من دعوى التحريف ، إنه التحريف الذي سعى إليه العدو الإسرائيلي المشهور بقتل الفكر والجسم ، إذ لم يحاول تحريف القرآن إلا اليهود .

وهذا ما جرى في المغرب وغانا وغينيا وما لي ودول إفريقية أخرى كانت مستعمرة وجاهلة ، وقد اكتشفت السفارة المصرية في المغرب هذه المؤامرة في الدس عام ١٩٦١ ، وبعثت بالمحرّف إلى القاهرة ، فهذا جهد عملي ، وما يتفوّه به المغرضون جهد نظري يمهد لليهود محاولة التحريف العملية .

ثالثاً ـ الجمع الشهودي العثماني :

١ ـ الدواعي :

اتسعت رقعة البلاد الإسلامية وتباعدت الأمصار مع الفتوحات المباركة ، ونتج عن هذا أن تفرّق الصحابة الكرام في أصقاع الأرض فاتحين داعين إلى الدين الحنيف ، فكانوا الأبطال المعلمين وخير حملة الدين .

وأخذ كل إقليم بقراءة عن أحد الصحابة ، فأخذ أهل الشام بقراءة أُبيّ بن كعب رضي الله عنه ، وأخذ أهل الكوفة بقراءة ابن مسعود رضي الله عنه ، مما فتح باب الشقاق والنزاع عند المتعلمين الجدد عرباً وعجماً ، واستفحل الداء حتى كفّر بعضهم بعضاً إن صدق القول ، لأننا نلمس فيه مبالغة ، وكادت تكون فتنة .

وكما أرشدت فتنة الردة واليمامة عمر رضي الله عنه ، إلى فكرة الجمع ، أرشدت محنة الاختلاف في القراءة إلى جمع عثمان رضي الله

عنه للقرآن في مصاحف ، وكما كان صاحبَ الفكرة النظرية عمر وكان المنفذ أبا بكر رضي الله عنهما ، كانت فكرة النسخ لحذيفة وكان المنفذ عثمان رضي الله عنهما . ونورد النص الصحيح عند البخاري الذي يوضح الدواعي الحقيقية مما يلقم المغرضين حجراً .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه « أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان ، وكان يغازي مع أهل الشام في فتح إرمينية ، وأذربيجان مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة ، فقال حذيفة لعثمان : يا أمير المؤمنين ، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى ، فأرسل عثمان إلى حفصة ، أن أرسلي إلينا بالصحف ، ثم نردّها إليك ، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان ، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، فنسخوها في المصاحف ، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن ، فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما نزل بلسانهم ، ففعلوا ، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ، ، ردّ عثمان الصحف إلى حفصة ، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أن يحرّق »[1] .

وثمة روايات أخرى توازي هذه الرواية وتبين مواقع أخرى للفتنة ، إنها شاملة للجند وغيرهم وللعراق والشام والحجاز ، فلم تقتصر على فئة ولا بقعة .

---

(١) البخاري ، فضائل القرآن ، ح (٤٠١٠٢) ، والترمذي ، التفسير ، ح (٣١٠٤) ، والنسائي ، فضائل القرآن ، ح (٧٩٨٨) ، وابن حبان ، السير ، ح (٤٥٠٦) ، وسنن البيهقي ، ح (٢٢٠٣) ، وشعب الإيمان ، ح (١٧١) .

فقد عرض عثمان رضي الله عنه المسألة على كبار الصحابة وفقهائهم ، واستشارهم في الأمر : « ماترون في المصاحف ، فإن الناس قد اختلفوا في القراءة ، حتى إن الرجل ليقول : قراءتي خير من قراءتك ، وقراءتي خير من قراءتك » فقالوا : الرأي عندك يا أمير المؤمنين ، فقال : الرأي أن يجتمع الناس على قراءة واحدة ، فإنكم إذا اختلفتم اليوم كان مَنْ بعدكم أشدّ اختلافاً ، فقالوا : الرأي رأيك يا أمير المؤمنين »[1] .

وليس يقتصر الأمر على المخالفة ، فكان ثمة نزاع وتكفير ، فقد ذكر الحافظ ابن حجر : « إن أناساً من أهل العراق كان أحدهم إذا سمع آية تقرأ بغير قراءته ، قال : إني أكفّر بهذه ، وفشا ذلك في الناس ، فتكلم عثمان في ذلك »[2] .

ولعل منشأ التكفير بساطة بعض العقول ممن يجهل القراءات ، حتى يظن اختلاف القراءة مخالفة للنص المنزل ، أي يعارض البشري بالإلهي ، وليس الأمر كذلك ، إن هو إلا اختلاف في اللغات التي كان مرخصاً بها ، ولا يتعلق الأمر بنسخ التلاوة خلافاً لما يرى الشيخ أبو زهرة[3] ، إذ لم يثبت هذا النوع من النسخ .

وتجاوز الأمر الرجال إلى الغلمان ، ولا شك أنه شمل النساء لما ذكرنا من اهتمامهن بالقراءة والإقراء ، فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه قال : « اختلفوا في القرآن على عهد عثمان ، حتى اقتتل الغلمان والمعلمون » ، حتى ارتفع ذلك إلى المعلمين ، وكفّر بعضهم بعضاً ، فبلغ ذلك عثمان رضي الله عنه فخطب : « أنتم عندي تختلفون ،

---

(١) البرهان : ١/ ٢٣٥ ، الإتقان : ١/ ٥٩ .

(٢) فتح الباري : ٩/ ١٤ .

(٣) المعجزة الكبرى ، محمد أبو زهرة ، ص/ ٣٠ـ ٣١ .

فمن نأى عني من البلدان أشد اختلافاً »[1] .

يتضح مما سبق أن أسباب الجمع دينية خالصة لوجهه تعالى ومصلحةالأمة ، وهو عمل شرعي ما دمنا نقول مع الأصوليين : حيثما وجدت المصلحة المنضبطة فثمّ شرع الله .

فليس الأمر كما تخيل « بلاشير » ومن تبعه في التشكيك بنية عثمان رضي الله عنه ، فقد ذهب هذا الرجل إلى أن عثمان بن عفان رجل أرستقراطي أراد أن يقتنص شرفاً لذويه القرشيين ، وأنه أحب أن يكون له مصحف خاص كغيره من الصحابة ، فهذا الحافز الشخصي القبلي ينفي عن النص القرآني صفة التواتر وقطعية الثبوت .

وفي المكان نفسه يدعي « بلاشير » أن عثمان رضي الله عنه اختار لكتابة المصاحف ثلاثة صحابة قرشيين لصلات المصاهرة بينه وبينهم ، مع أن الباحث المتعامي يدرك تماماً أن رئيس اللجنة ـ ونعني زيداً رضي الله عنه ـ مدني مما يدل على تهافت فكره وتفاهة منطقه ، وقد تبعه في هذه التهويمة دارسون آخرون من أبناء جلدتنا ، ورسخوا فكرة الانتقاء واستبعاد بعض النصوص[2] .

يقول الدكتور تيزيني : « ومن الملاحظ أن تلك الظروف التي أحاطت بعملية جمع القرآن في مصحف واحد وتحريق ما تبقى من المصاحف ، كانت تشير إلى أن عثمان ربما كان يهدف من وراء ذلك إلى تحقيق أمرين اثنين متضايفين : الأول منهما تمثل في الحفاظ على الوحدة الدينية (الإيديولوجية) للمسلمين في الدولة الفتية المتعاظمة ، حتى لو تم ذلك

---

(١) البرهان : ١/ ٢٣٥ ، الإتقان : ١/ ٦١ .

(٢) راجع : نقد الخطاب الديني ، د . نصر حامد أبو زيد ، ص/ ٢٨ ، والنص القرآني ، د . طيب تيزيني ، ص/ ٦٥ وغيرها .

على أساس نص قام على أنقاض نصوص إنتهى بها الأمر إلى « الطبخ » ، أما الأمر الثاني فقد تجسد في الطموح إلى الهيمنة الدينية (الإيديولوجية) السلطوية للطبقة الاجتماعية الجديدة الناهضة ، التي استقت قياداتها من بني أمية المناهضة قبلياً لبني هاشم »[1] .

إذن فلنخلع صفة الصحبة عن هذا الرجل الذي دان له الناس بالمصاحف وقبولها رغم ما عرف عنه من استبعاد العنف السياسي ، ونصدّق من يستقي من هيمنة الاستشراق حتى نصل إلى بلورة لأفكار المستشرقين ، فنقرّ بالطبخ والنصوص القرآنية المطبوعة ، وكأن الإسلام كله سياسة حتى أطلق كلمة إيديولوجية ، فلا يوجد عبادات ، بل إن عثمان رضي الله عنه يبدو هنا رجلاً ممزقاً بين ولائه للإسلام السياسي وحده وولائه لعشيرته !

ولا ندري لماذا سكت المسلمون عن هذا التعصب القبلي الذي أفقدهم نصهم الحقيقي وصاروا يتعبدون من غير نص ، حتى يفرغوا لطبيخ رجل قتل في سبيل الحق رضي الله عنه ، هكذا البحث مخالفة الجلي وادعاء الخفي .

أما جولدزيهر المستشرق اليهودي فلم يفرق بين اختلاف النص وتعدد القراءة ، فيعزو جمع عثمان رضي الله عنه إلى رغبة الخليفة في توحيد الصور المتغايرة ، يقول : « ليس هناك نص موحد للقرآن ، ومن هنا نستطيع أن نلمح في صياغته المختلفة أولى مراحل التفسير ، والنص المتلقى بالقبول (القراءة المشهورة) الذي هو بذاته غير موحد في جزئياته ، يرجع إلى الكتابة التي تمت بعناية الخليفة ، دفعاً للخطر الماثل

---

(١) النص القرآني ، ص/ ٤٠٢ .

من رواية كلام الله في مختلف الدوائر على صور متغايرة ، وتداوله في فروض العبادة على نسق غير متفق ، فهي إذن رغبة التوحيد ذات حظ من القبول »[1] .

ولم يفهم هذا المتعالم أنه إن كان ثمة رغبة ، فهي الحرص على الاعتراف بالقراءات وجمعها في مصاحف ، وليس الرغبة في التوحيد وإلغاء الآخر .

وينقل الدكتور تيزيني عن الإمام الطبري كلاماً ويحوّره بما يوافق هوى جولدزيهر ، إذ يذكر الطبري أن الثائرين على عثمان ـ إن صحت الرواية ـ قالوا : « كان القرآن كتباً ، فتركتها إلا واحداً ، فيرد عليهم : ألا وإن القرآن واحد جاء من واحد ، وإنما أنا في ذلك تابع لهؤلاء أكذلك ؟ قالوا : نعم »[2] .

فبعد ما نقل وثيقة هامة تؤكد أنه اتبع أهواء (هؤلاء) وراح يحرف كما يريدون ، ويذكر الباحث كتاب « الرد على من خالف مصحف عثمان » لابن الأنباري ولا يعرف أنه كتاب يشتمل على ردود وإنكار قراءات شاذة لم تصح عن النبي ﷺ أنه ينكر القراءات المتواترة التي هي في مصاحف عثمان ، لكنه يصل إلى أن « تمامية المتن القرآني وكما هو بيّن ، فإن إجماعاً على هذه التمامية يغدو والحال كذلك أمراً خارج دائرة المصداقية التاريخية التوثيقية »[3] .

ونحب أن نذكّر هنا بمقولتين لعلي رضي الله عنه يدلان على قبول الأمة جميعها بكل اقتناع لما حققه عثمان من وحدة المتعبدين والأبطال ،

---

(١) مذاهب التفسير الإسلامي ، ص/ ٦ .

(٢) تاريخ الطبري : ٤/ ٣٤٧ .

(٣) النص القرآني ص/ ٤٠٥ وانظر ص/ ٣٨٣ ، ٤١٣ لتعرف عمن يأخذ .

ولم يقتصر التماسك على الحرب والسياسة ، قال : « لاتقولوا في عثمان إلا خيراً ، فوالله ما فعل الذي فعل إلا على ملأ منا » وقال : « لو وليتُ لفعلت في المصحف ما فعل عثمان »[1] فهو إذن ليس عملاً سرياً فردياً باغياً .

أما ما يذكر في بعض الروايات من حصر عدد الصحابة الذين أقروا الإحراق فلا يؤخذ على ظاهره ، فقد ورد أن عدد الصحابة الذين أقروا الإحراق اثنا عشر ألفاً[2] ، ولا نتصور أن سائرهم إما رافض أو محايد ملتزم الصمت ، فالمقصود بالعدد من وجد في المدينة المنورة أو من حضر الجمع والإحراق ، فالإقرار جماعي كلي .

ألم ينتبه هؤلاء إلى أن نص البخاري وثيقة دينية لا يضارعه نص في الثقة والضبط والأمانة على مر التاريخ ، وقد قال : بلسان قريش ، ولم يقل بلساننا ، أو بني أمية .

وثمة رواية أخرى تؤكد أن حذيفة ـ وهو ليس بالقرشي ـ كان قد قدم من غزوة ، فلم يدخل بيته حتى أتى عثمان رضي الله عنهما ، أبعد هذا السبب يكون ثمة تحريض أو دوافع قبلية .

وما علاقة النزعة القبلية والسلطة السياسية بمراقبة حذيفة رضي الله عنه للقرّاء وغضبه من الخطأ ، إذ أخرج ابن أبي داود « أن اثنين اختلفا في آية من سورة البقرة ، قرأ هذا ﴿ وَأَتِمُّوا ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ [البقرة : ١٩٦] وقرأ هذا « وأتموا الحج والعمرة للبيت » فغضب حذيفة واحمرت عيناه »[3] أتكون غضبة قرشية بعد هذا ؟ مع أن القرآن لا يذكر ميلاً إلى قريش ، بل لا يذكر

---

(١) المصاحف ، لابن أبي داود ، ص/ ٢٤ .

(٢) تاريخ القرآن ، الكردي ، ص/ ١٠٦ .

(٣) المصاحف ، ابن أبي داود ، ص/ ٢٥ ، وفضائل القرآن لابن كثير : ٤/ ٢٢٥ .

ميلاً إلى العرب عامة ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

إن ما نذكره نصوص وما يقرأ هؤلاء من فتات المستشرقين نصوص ، فلماذا الإعراض عن نص وقبول آخر ؟ والمعرض عنه يحمل مظاهر صدقه في القرآن نفسه الذي لا ينحاز إلى أمة ، وليراجع هؤلاء عن تحرّي عثمان وجمعه للقرآن من المسلمين كافة لا من قبيلته ، والطابع الديني المتجلي في الاستحلاف وطلبه لعروبة اللسان لا لقرشية اللسان .

روي عن مصعب بن سعد رضي الله عنه : « قام عثمان فخطب الناس ، فقال : أيها الناس ، عهدكم بنبيكم منذ ثلاث عشرة ، وأنتم تمترون في القرآن ، وتقولون : قراءة أُبي ، وقراءة عبد الله ، يقول الرجل : والله ما تقيم قراءتك ، وأعزم على كل رجل منكم ما كان معه من كتاب الله شيء لما جاء به ، وكان الرجل يجيء بالورقة والأديم فيه القرآن ، حتى تجمع من ذلك شيء كثير ، ثم دخل عثمان ، فدعاهم رجلاً رجلاً فناشدهم ، لسمعت رسول الله ﷺ وهو أملاه عليك ؟ فيقول الرجل : نعم ، فلما فرغ عثمان من ذلك قال : من أكتب الناس ؟ قالوا : كاتب رسول الله ﷺ زيد بن ثابت ، قال : من أعرب الناس ؟ قالوا : سعيد بن العاص ، قال عثمان : فليملَّ سعيد وليكتب زيد ، فكتب زيد مصاحف ففرقها في الناس ، فسمعت بعض أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : قد أحسن » .

أما ادعاء النزعة القرشية العاملة في اختيار اللجنة ، فأمر مكذوب وكلام ساقط يُرد على بلاشير وغيره ، فقد تم الاختيار لاعتبارات موضوعية لها علاقة بالنص ولا تتجاوزه ، فزيد رضي الله عنه من الأنصار ليس بالقرشي ، وسعيد بن العاص رضي الله عنه كان أفصح قريش وأشبه الناس بلهجة النبي عليه الصلاة والسلام ليس للانتماء القبلي فحسب ، بل

لاعتبار فكري خاص ، وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما من ثقات الحفاظ ، وكذلك عبد الرحمن بن الحارث بن هشام رضي الله عنه ثقة حافظ[1] .

ويذكر الحافظ ابن حجر العسقلاني « أن نصيب قريش من اللجنة كان كبيراً ، لأن القرآن نزل بلسان قريش كما ذكر عثمان رضي الله عنه ، وأثبت أن الجمع قد تم في حدود عام ٢٥هـ »[2] .

وغفل بعض الناس فزعموا أنه تم عام ٣٠ هـ ، وهذا ما تمسك به « بلاشير » ليستبعد وجود أُبي بن كعب رضي الله عنه من اللجنة بحجة أنه توفي سنة ٢٨ هـ ، مع أن ابن حجر لا يرى سنداً للمقولة الأخيرة .

كذلك لا يعد كلام الذهبي سنداً لبلاشير إذ قال الإمام الذهبي : « وما أحسب أن عثمان ندب للمصحف أُبياً ، ولو كان ذلك لاشتهر ، لكان الذكر لأُبيّ لا لزيد »[3] . بل يبقى الذكر لزيد لأنه أشهر في الأمر ، ولأن اشتراك أُبي لا يخوله إلى الأولوية .

وقد روعي في هذه اللجنة أن تجمع بين الشباب والكهول والمهاجرين والأنصار ، ذلك لأن الشباب يمثلون القوة ، والكهول يمثلون الخبرة ، فكان من الشباب زيد وسعيد وعبد الرحمن والكهول عبد الله بن عمرو بن العاص وأُبي ومالك بن أبي عامر جد مالك بن أنس .

كما تفيد بعض الروايات أن اللجنة قد ضمت أيضاً عبد الله بن عمر بن الخطاب وأبان بن سعيد بن العاص الذي قال فيه عثمان لزيد رضي الله

---

(١) مقدمتان في علوم القرآن ، ص/١٩ ونكت الانتصار لنقل القرآن ، الباقلاني ، ص/٣٦٩ .

(٢) فتح الباري : ٩/٩ ، والمرشد الوجيز ، ص/٦٩ ، ، الفتاوى : ١٩/٢٨ .

(٣) سير أعلام النبلاء : ١/٢٨٧ .

عنهما : « إني جاعل معك رجلاً لبيباً فصيحاً ، فما اجتمعتما عليه فاكتباه ، وما اختلفتما عليه فارفعاه إليّ »[1] .

فإذا كانت اللجنة المشهورة رباعية فهي عند ابن حجر لجنة اثنا عشرية فيها إضافة إلى ما ذُكر : علي وابن عباس وكثير بن أفلح مولى أبي أيوب وأنس بن مالك رضي الله عنهم .

وهذا حتماً لا يناقض رواية البخاري التي تنص على العدد أربعة ، فهي بحسب المعطيات لجنة أساسية تردفها لجنة ثانوية ، وخلف هؤلاء مجموعة كبيرة من الصحابة لم يذكروا وإن كانوا عوناً في الكتابة والمذاكرة أو تحضير المواد المكتوبة وتنسيقها وتحضير أدوات الكتابة وهذا هو المتوقع .

نخلص إلى أن زيداً أشبه ما يكون برئيس اللجنة في هذا العمل المقدس ، فلم يكن وحده لجنة ولا طرفاً بإزاء مجموعة قرشية ، كما أن عثمان راعى في هذه اللجنة وجود أربعة من الأنصار : زيد ، أُبي ، أنس ، أفلح ، وفيها مالك بن أبي عامر حميري يمني ، فهذه اللجنة مكونة من العرب الخُلّص ما عدا كثيراً إذ كان مولى ومولى القوم منهم لغة وعادات .

ولعل عثمان رضي الله عنه قد راعى في تكوين اللجنة أن تمثل المهاجرين والأنصار ، والشمال والجنوب ، والسادة والموالي ، لتكون هذه الثنائيات دافعة لأي شبهة تحيز ، وأن تجمع بين فردية زيد والجماعة ينتزع سمّ الطابع الشخصي والقبلي والجغرافي .

---

(١) جامع البيان للطبري : ١/ ٦٠ ، مشكل الآثار للطحاوي : ٤/ ١٩٣ وقد ضعف الطبري هذه الرواية .

ولا بد أن نورد نصاً يؤكد جماعية الحدث ، ويشير إلى ما ذكرناه من مساعدة عامة الصحابة للجنة ، لأن إقرار الجميع بأن ما سجل كان مكتوباً بين يدي النبي عليه الصلاة والسلام يعني المشاركة العامة .

أخرج ابن أبي أشتة « أن عثمان رضي الله عنه قال : يا أصحاب محمد ، اجتمعوا فاكتبوا للناس إماماً ، فاجتمعوا فكتبوا ، فكانوا إذا اختلفوا وتدارؤوا في آية قالوا : هذه أقرأها رسول الله ﷺ فلاناً ، فيرسل إليه وهو على رأس ثلاث من المدينة ، فيقال له : كيف أقرأك رسول الله ﷺ آية كذا وكذا ؟ فيقول : كذا وكذا ، فيكتبونها وقد تركوا لذلك مكاناً »[1] .

فيمكن أن نقول : كان يكفي زيد وحده لهذه المهمة لكونه يمثل العدالة ولكن أضيف إلى ضبطه هذا العدد ليزداد الأمر ضبطاً ، وما اختلفوا فيه مجرد أداء الآية أي ما يسمى بالقراءات وليس في الأمر شك في الزيادة والنقصان ، إذ لحظنا في النص الأخير عبارة (كيف أقرأك) .

وغار « بلاشير » على ابن مسعود ، فراح يدافع كافر عن مسلم ، فادعى أنه اضطهد ، وتفوّه بأسباب واهية تساند فريته التي تلقّفها بعض الدارسين بشهية الكفرة ، ولم يقدّروا أن ابن مسعود كان بعيداً في الكوفة من أيام عمر رضي الله عنهما ، فهذا سبب جغرافي ، وثمة سبب جسماني إذ هو ضعيف الجسم كما يعرف ، فما ذكره هؤلاء فرية ينقضها التاريخ .

قال الدكتور تيزيني : « لقد برزت أهم الاختراقات القرآنية المتينة . . فإلى جانب النص الجزئي الأولي الذي جمعه زيد بن ثابت وجدت أربعة نصوص جزئية أولية أخرى ، كانت لعبد الله بن مسعود وأبي موسى

---

(١) الإتقان للسيوطي : ١/ ١٣١ .

الأشعري ومقداد بن عمر وأُبي بن كعب ، ولم تكن هذه القراءات متماثلة ، وأدت الفوارق إلى اختلافات بين المسلمين »[1] .

فمن قال له إن زيداً وحده هو الجامع ؟ أليس هذا الصحابي قد اعتمد أولاً على مصحف سابق أقرت به الأمة ، ألم يعاونه الصحابة ، أم هو احتكار فكري ؟ والاختلافات في أداء النص ، وليس في حجم النص وماهيته ، حتى لا يفهم هذا الدارس اختراقاً وتحريفاً ، ولم يُضرب ابن مسعود ولم يشهَّر به كما يدّعى ، وليس « دومينيك » الصادق الموضوعي ، حتى نكذب مروياتنا لأجل حقده على الإسلام ، ولا يجوز أن يتطاول الدارسون بالاعتماد على فرية مبتعدين عن المنهج العلمي .

ينقل الرواة أن ابن مسعود رضي الله عنه صعد المنبر بعد أن أرسل إليه مصحف الكوفة فخطب الناس قائلاً : « ولقد علم أصحاب النبي ﷺ أني من أعلمهم بكتاب الله ، وما أنا بخيرهم ، ولقد أخذت من في رسول الله ﷺ بضعاً وسبعين سورة وأخذت بقية القرآن عن أصحابه ، والله الذي لا إله إلا غيره ، ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين نزلت ، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيمن أنزلت ، ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه ، وتكلفت أن آتيه .

على من تأمرونني أن أقرأ ، وقد قرأت على رسول الله ﷺ ؟ وكيف تأمرونني أن أقرأ على قراءة زيد بن ثابت ؟ وقد قرأت من في رسول الله ﷺ مثله ، أفأترك ما أخذت من في رسول الله ﷺ ؟ أيها الناس ، إني غالٌّ مصحفي وحابسه عن أن يحرق ، فمن استطاع منكم أن يغلَّ مصحفه فليفعل »[2] .

---

(١) النص القرآني ، ص/ ١٤٧ وص/ ٣٩٨ نقله عن دومينيك سورديل ، الإسلام ، ص/ ٤٠ .

(٢) مقدمتان ، ص/ ٩٥ وراجع في جوهر الاختلاف الفصل في الملل والأهواء والنحل ، =

إن التحريف لا يوصم به الصحابة ، بل يوصم به من يريد أن يعلم الناس الوقوف على الآية : ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤﴾ [الماعون : ٤] من غير إردافها بالمقيد وهو السهو ، إذ لا يذكر هؤلاء ما جاء في تمام الرواية من أن ابن مسعود رضي الله عنه استحيا مما قال وندم وختم بقوله : « ماأنا بخيرهم » قولة الحق .

ولم يكن منه إلا غضبة سريعة الزوال ، حتى عاد إلى رشده ، وأدرك حسن الاختيار ، وفهم المراد من المصاحف ، لأنه فهم بادئ ذي بدء توحيد القراءات وإبطال قراءته ، ولم يعترض على ترتيب عثمان رضي الله عنه سوراً وآيات ، إنما توهم نفي القراءات الأخرى .

كما لم يعارضه في المضمون ولم يذكر أن عثمان زاد المعوذتين في مصاحفه ، بل يقول ابن قتيبة كما نقل عنه الزرقاني من غير تعقيب صحيح : « ظن ابن مسعود أن المعوذتين ليستا من القرآن ، لأنه رأى النبي ﷺ يعوّذ بهما الحسن والحسين ، فأقام على ظنه ، ولا نقول : إنه أصاب في ذلك وأخطأ المهاجرون والأنصار »[1] .

إننا لا نقبل باقتران هذا الصحابي بالظن في قضية جليلة ، أيظن ما هو قرآن ليس قرآناً وهو الحافظ للقرآن والسنة ، والفقيه المتمكن ، ولا نكتفي بحجة الكثرة ، بل ندفع تهمة الظن عنه ، بل إننا نقول مع الإمام النووي رضي الله عنه : « أجمع المسلمون على أن المعوذتين والفاتحة من القرآن ، وأن من جحد منه شيئاً كفر ، وما نقل عن ابن مسعود باطل ليس بصحيح » .

= ابن حزم ص/ ٧٦ـ ٨٠ ، وتاريخ القرآن ، د . شاهين ، ص/ ١٢٥ .

(١) تأويل مشكل القرآن ، ص/ ٢٠٩ ، ومناهل العرفان : ١/ ٢٧٠ .

وقال ابن حزم الأندلسي رحمه الله : « وكل ما روي عن ابن مسعود من أن المعوذتين وأم القرآن لم تكن في مصحفه فكذب موضوع لا أصل له ، وإنما صح عنه قراءة عاصم عن زرّعنه وفيها المعوذتان والفاتحة »[1] .

ب ـ كيفية النسخ :

لاشك أن اللجنة كانت لا تكتب شيئاً حتى يتم عرضه على مصحف أبي بكر رضي الله عنه ، وبعد أن يقر الصحابة بأن رسول الله ﷺ قرأ على هذا النحو الذي نجده اليوم في المصاحف .

ولا بأس أن نذكر نصاً عند البخاري يفي بشدة التحري لا بنقصان التواتر وخدش الحفظ الجماعي كما يرى المغرضون ، إذ يقول زيد : « فقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف ، وقد كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأ بها لم أجدها إلا مع خزيمة الأنصاري الذي جعل له رسول الله شهادته بشهادة رجلين »[2] .

والآية هي : ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٢٣] ولا نظن أن تخفى هذه الآية إذ تخص كل إنسان لكونها خاصة بالجهاد وليست ـ مثلاً ـ وصفاً لشخصية قصصية أو نظراً في الكون ، فللآية قوتها الواقعية المعيشة ، بل كان يقصد زيد كتابتها فلم يجدها مكتوبة عن النبي ﷺ إلا عند خزيمة .

وليس المقصود هنا إلا خزيمة الحارث بن خزمة الذي جاء بآخر التوبة

---

(١) المجموع للنووي : ٣/ ٣٩٦ .

(٢) البخاري ، الجهاد وفضائل القرآن ، ح (٣٨٢٣) ، ومسند أحمد ، ح (٢١٦٨٣) ، والترمذي ، التفسير ، ح (٤٧٠٢) ، وابن حبان ، السير ، ح (٤٥٠٦) ، والسنن الكبرى ، ح (٢٢٠٣) ، وشعب الإيمان ، ح (١٧١) والمعجم الكبير ، ح (٤٨٤١) .

في جمع أبي بكر رضي الله عنه . الذي قيل فيه : توفي في خلافة عثمان وقيل : اسمه أبو خزيمة بن أوس .

فالذي جاء بآية الأحزاب هو خزيمة بن ثابت الأنصاري الذي قتل بصفين وكان مع علي رضي الله عنهما[1] وسبب منحه شهادتين ما رواه ابن سعد في الطبقات : « أن النبي ﷺ ابتاع فرساً من أعرابي ، فأشبهه النبي ﷺ لتقضيه عن فرسه ، فأسرع النبي ﷺ ، وأبطأ الأعرابي ، فطفق رجال يعترضون الأعرابي ، فيساومون الفرس ، لا يشعرون أن النبي ﷺ ابتاعه ، حتى زاد بعضهم للأعرابي في السوم على ثمن الفرس الذي ابتاعه به النبي ﷺ ، فنادى الأعرابي النبي ﷺ ، فقال : إن كنت مبتاعاً هذا الفرس فابتعه ، وإلا بعته ، فقام النبي ﷺ فقال : أليس قد ابتعته منك ؟ قال : لا ، فطفق الناس يلوذون بالنبي ﷺ والأعرابي ، وهما يتراجعان ، فطفق الأعرابي يقول : هلم شهيداً يشهد بأني بايعتك ، فمن جاء من المسلمين قال للأعرابي : ويلك إن النبي ﷺ لا يقول إلا حقاً ، حتى جاء خزيمة ، فاستمع لمراجعة النبي ﷺ ومراجعة الأعرابي ، فقال خزيمة : أنا أشهد أنك بايعته ، فأقبل النبي ﷺ على خزيمة فقال : بم تشهد ؟ فقال : بتصديقك يا رسول الله ، فجعل النبي ﷺ شهادة خزيمة بشهادة رجلين » وفي رواية : « أن النبي ﷺ قال لخزيمة : لم تشهد ولم تكن معنا ؟ قال : يا رسول الله ، إنا نصدقك بخبر السماء أفلا أصدقك بما تقول »[2] .

وما ذكر من الحصول على آية الأحزاب عند خزيمة لا يخدش تواتر

---

(١) تفسير الخازن : ١/ ٩ وراجع الإصابة ، وانظر الخلط بين أبي خزيمة وخزيمة في مقدمتان ص/ ٢١ـ ٢٢ ولم ينتبه إليه آرثر جفري محقق الكتاب .

(٢) الطبقات : ١/ ١٢٠ .

القرآن فلا يدل على رواية آحادية ، إذ كان الغرض زيادة التوثيق والتأكد من أن ما سجّل كان قد كتب بين يدي النبي عليه الصلاة والسلام ، فما فقد كان محفوظاً في صدر زيد وغيره ، بل كان يبتغي الأصل المكتوب لأنه قال : « كنت أسمع رسول الله يقرأ بها » .

ولكن آية الأحزاب لا شك مكتوبة في صحف أبي بكر رضي الله عنه ، والتواتر حفظي لا كتابي ويقول الدكتور أبو شهبة معللاً فقدان الآية مكتوبة : « لعلها انمحت وتطاير مداها فلم يبق ما يدل عليها ، أو لعل الأرضة أكلت موضعها من الصحيفة ، فاضطر أن يبحث عن أصلها المكتوب فوجده مع خزيمة بن ثابت ، على أن المعول عليه في القرآن التواتر الحفظي لا الكتابي »[1] ، وهو رأي سديد يرجّح على السكوت عن مصحف أبي بكر مع أنه المعتمد في النسخ .

وكانت اللجنة لا تكتب شيئاً إلا بعد عرضه على صحف أبي بكر رضي الله عنه وبعد أن يقرّ به الصحابة ، فكانت النتيجة النقل المتواتر بشدة الحيطة وإزالة الشك من القراءات لأن الرسم العثماني ساعد على احتمال القراءات الصحيحة .

فالمصاحف خالية من النقط والتشكيل تحقيقاً للاحتمال ، كما في كلمة « فتبينوا » من قوله تعالى : ﴿ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ [الحجرات : ٦] فالكلمة الأخيرة يمكن أن تقرأ « فتثبتوا » عند خلوها من النقط والتشكيل وهي قراءة صحيحة .

وكذلك الآية : ﴿ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ﴾ [البقرة : ٢٥٩] فتجريد الكلمة الأخيرة يسمح لقراءتها « ننشزها » بالزاي وهي قراءة .

---

(١) المدخل ، ص/ ٢٨٧ .

أما إذا استحال جمع القراءتين مع الرسم الخالي من النقط والتشكيل ، فترسم الكلمة في مصحف على شكل وفي مصحف آخر بشكل مغاير مثل « وصّى » و« أوصى » من قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ ﴾ [البقرة : ١٣٢] (وأوصى) في مصحف المدينة (ووصى) في مصحف العراق .

ومنه أيضاً قراءة « تحتها الأنهار » و« من تحتها الأنهار » بزيادة من في آية التوبة : ﴿ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ [التوبة : ١٠٠] والزيادة قراءة ، ومنه ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ و(وما عملت أيديهم) [يس : ٣٥] . ولم تكتب مرتين في مصحف واحد دفعاً لتوهم النزول بالتكرار ، كما لم تكتب إحداهما في الأصل والأخرى في الحاشية لئلا يظن أنها تصحيح لها .

وكانت المصاحف مشتملة إذن على الأحرف السبعة باحتمال الرسم أو بتعدد الكتابة بين مصحف وآخر ، ونذكر مثالين : الآية : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾ [المؤمنون : ٨] كتبت (لأمانتهم) موصولة وعليها ألف صغيرة ، لتقرأ بالجمع والإفراد ، والآية : ﴿ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾ [سبأ : ١٩] كتبت (بعد) لتقرأ باعد وبعد .

أما اللغة المختارة فهي لغة قريش كما كان في توجيه عثمان رضي الله عنه : « إذا اختلفتم أنتم وزيد في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم » وبعض الدارسين يرجّحون أن المراد طريقة الكتابة[1] .

وليس صحيحاً أن المعنى بالأحرف السبعة : لهجات مختلفة وحّدها عثمان في لغة قريش كما يرى الدكتور الأبياري ، وليس صحيحاً أنه

---

(١) تاريخ القرآن والتفسير ، د . الأبياري ، ص/ ٥٥ .

جمعهم على حرف واحد يوافق العرضة الأخيرة[1] فاللغة لا علاقة لها بالحرف مع إقرارنا بأن لغة قريش عامة شاملة للغات متعددة .

وقد بقيت المصاحف خالية من النقط حتى سنة (٨٩هـ) إذ استطاع نصر بن عاصم الليثي (٨٩هـ) وهو نحوي معروف أن ينقط القرآن بأمر من الحجاج بن يوسف الثقفي (٩٥هـ) ، وكان يدعى نصر الحروف ، وثمة رواية تقول : إن زياد بن أبي سفيان أمر أبا الأسود الدؤلي (٦٩هـ) بنقط المصاحف[2] .

ومما لم يذكره الدارسون ترجيح أن يكون عثمان رضي الله عنه قد اقتفى أثر المصحف الإسلامي الأول ، المصحف البكري في عدم التنقيط حتى يستوعب القراءات ، ولفظة الترك تدل على أن اللغة العربية قبل الإسلام اشتملت على إعجام الحروف التي تحتاج إلى إعجام كلها وبعضها ، فتُرِك كمال الإعجام الذي قد يكون لقصائد الشعر والعهود لأجل استيعاب القراءات .

قال ابن عباس ، رضي الله عنهما : إن أول من وضع الحروف العربية ثلاثة رجال من بولان (من طيئ) نزلوا مدينة الأنبار وهم : مرامر بن مرّة وأسلم بن سدرة وعامر بن جدرة ، اجتمعوا فوضعوا حروفاً مقطعة موصولة ثم قاسوها على هجاء السريانية ، فأما مرامر فوضع الصورة وأما أسلم ففصل ووصل وأما عامر فوضع الإعجام . مع شكنا الأولي بأسماء هؤلاء ، إذ شكلت أسماؤهم سجعاً .

ويذهب القلقشندي (٨٢١هـ) إلى أنه يبعد أن الحروف قبل ذلك مع

---

(١) النشر : ١/ ٣٢ـ ٣٣ ، وراجع تاريخ القرآن للأبياري ، ص/ ٢٣ ، ومن روائع القرآن د . البوطي ، ص/ ٧٤ .

(٢) المحرر الوجيز : ١/ ٣٥ .

تشابه صورها كانت عارية عن النقط إلى حين نقطت نقط المصاحف[1] .
رز ، د ذ ، ص ض ، ط ظ ، ع غ ، س ش . . . إلخ .

وقد وجدت[2] بعض الكتابات يعود تاريخها إلى قبل نصر بن عاصم ، كما في مجموعة الأرشيدوق دينر البردية المحفوظة في المكتبة الأهلية في فيينا ، وجد فيها بعض الحروف المتشابهة قد نقط وبعضها قد أغفل وكذلك الوثيقة البردية التي يرجع تاريخها إلى ٢٢ هـ على عهد عمر رضي الله عنه وكتبت بالعربية واليونانية وبعض حروفها منقوط معجم وهي الخاء والذال والزاي والشين والنون ، وثبت وجود نقش بقرب الطائف مؤرخ بسنة ٥٨ هـ على عهد معاوية رضي الله عنه ، نقط فيه أكثر الحروف المعجمة ؛ ولذلك لم يستخدم الصحابة النقط في كتابة المصاحف لأن التجريد « لتكون صورة الرسم محتملة للأمرين كالتاء والياء والفتح والضم ، وهم يضبطون للفظ كلا الأمرين وتكون دلالة الخط الواحد على كلا اللفظين المنقولين المسموعين المتلوين شبيهاً بدلالة اللفظ الواحد على كلا المعنيين المنقولين المفهومين »[3] .

أما ما ينقله الدارسون من أن الحجاج غيّر في مصحف عثمان أحد عشر حرفاً[4] فهو باطل ينكره تواتر الأمة أو سلطة الجماهير والشعب إذا أردنا أن نتكلم بلغة المعاصرين الذين يتبعون المرويات الواهية السند .

إن الأمة قد أطبقت على صحة المنقول في مصحف أبي بكر

---

(١) صبح الأعشى القلقشندي : ٣/ ٨ .

(٢) مصادر الشعر الجاهلي ، د . ناصر الدين الأسد ، ص/ ٤٠ ، وقصة الكتابة العربية ، د . إبراهيم جمعة ، ص/ ٥٠ ، واختلاف الإعراب في القراءات السبع د . موسى العبيدان ، ص/ ٣٧ .

(٣) مجموع الفتاوى ، ابن تيمية : ١٣/ ٤٠٢ .

(٤) تاريخ القرآن د . الأبياري ، ص/ ١٢٥ .

ومصاحف عثمان رضي الله عنهما ، وثمة فروق بين أنواع الجمع ومراحله ، فالجمع في عهد النبي عليه الصلاة والسلام عبارة عن كتابة الآيات وترتيبها ووضعها في مكانها الخاص من السورة ، ولكن مع تفريق الكتابة بين عسب وعظام وحجارة ورقاع مما يتيسر حينذاك ، وكان الغرض زيادة التوثيق ، وإن كان التعويل على الحفظ .

أما جمع أبي بكر فهو نقل القرآن وكتابته في مصحف مرتب الآيات أيضاً مستوثقاً له بالتواتر والإجماع ، وكان الغرض منه تسجيل القرآن وتقييده بالكتابة مجموعاً مرتباً خشية ذهاب شيء منه بموت حَملته وحُفّاظه .

أما الجمع في عهد عثمان ، فهو نقل ما في تلك الصحف في مصحف واحد إمام ، واستنساخ مصاحف منه بعد العرض على المحفوظ والمكتوب عند الصحابة ، ولحظ فيه ترتيب الآيات والسور واستيعاب القراءات وتجريد القرآن من التفسير .

ولا بد أن نوضّح هنا أنه ورد مصطلح مصحف عثمان ومصاحف عثمان بالإفراد والجمع ، والجمع هو الأكثر ، ويعزو الدكتور محمود الصغير هذا الاختلاف إلى « منهج عثمان في عمله ، فمن ذهب إلى أن اللجنة وضعت أولاً المصحف الإمام للخليفة ، ثم نسخت للأمصار منه أربع نسخ أو ستاً ، فإنه يجعله مصحفاً ، ومن ذهب إلى وضع خمس نسخ أو سبع دفعة واحدة ، فإنه يجعله مصاحف وهو الأقوى »[1] . وهو رأي سديد ، نضيف إليه أنهم عنوا بالإفراد اسم الجنس الدال على المجموعة .

---

(١) مجلة بحوث جامعة حلب .

واختلف العلماء في عدد المصاحف ، وإن كان الأرجح أنها فوق الأربعة ، قال ابن كثير : « إن عثمان كتب سبعة مصاحف ، أرسل إلى مكة مصحفاً ، وإلى أهل مصر آخر ، وبعث إلى البصرة مصحفاً ، وإلى الكوفة بآخر ، وأرسل إلى الشام مصحفاً ، وإلى اليمن مثله ، وأقرّ بالمدينة مصحفاً »[1] .

وإذا كان استبقى لنفسه مصحفاً بالإضافة إلى مصحف المدينة يصح العدد ثمانية ، وذلك لأن الروايات تقول : إن زيداً هو قارئ المدينة ، فلا يصح أنه يقرأ عند الخليفة للخليفة .

وبعض العلماء يرون أنه جعل المصاحف أربعة ، أرسل ثلاثة وأمسك عنده واحداً ، وتُذكر البحرين وفلسطين في روايات أخرى ترى العدد سبعة كما عند أبي عمرو الداني (٤٤٤هـ) في المقنع[2] .

والمهم أنه أرسل مع كل مصحف قارئاً لتوثيق الكتابة بالقراءة التي هي عمدة لقراءة القرآن التي تحتاج إلى التلقي من الأفواه ، فعبد الله بن السائب قارئ مكة ، والمغيرة بن أبي شهاب قارئ الشام ، وأبو عبد الرحمن السلمي قارئ الكوفة ، وعامر بن عبد القيس قارئ البصرة ، وزيد بن ثابت قارئ المدينة رضي الله عنهم أجمعين .

وهكذا جمع زيد شرف الحفظ وكتابة الوحي في العهد النبوي وجمع أبي بكر وجمع عثمان والتطبيق في إقراء أهل المدينة مما لم يجتمع لغيره رضي الله عنه .

وههنا يخطر بالبال تساؤل ، إذا كان هؤلاء هم القراء فلماذا لا تنسب

---

(١) البداية والنهاية : ٧/ ٢١٧ .

(٢) المقنع ، ص/ ٩ والمصاحف ، ص/ ٢٤ـ ٢٥ .

إلى جميعهم قراءات فتُنسب إلى ابن مسعود قراءة مع وجود السلمي في المدينة نفسها الكوفة ؟

والظاهر أن مصير هذه المصاحف هو التلف ، خشية أن تقع في قاذورة أو غيرها بعد أن أتت عليها السنون ، وتقول الروايات : إنها ظلت حتى القرن الثامن الهجري ، قال ابن فضل الله العمري (٧٤٩هـ) يصف مسجد بني أمية في دمشق : « وإلى جانبه الأيسر المصحف العثماني بخط أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه »[١] .

وقال ابن كثير : « وأما المصاحف العثمانية الأئمة ، فأشهرها اليوم الذي في الشام بجامع دمشق عند الركن شرق المقصورة والمعمورة بذكر الله ، وقد كان قديماً بمدينة طبرية ، ثم نقل منها إلى دمشق في حدود ثماني عشرة وخمسمائة ، وقد رأيته كتاباً عزيزاً جليلاً ضخماً بخط حسن بيِّن الحبر محكم في رق أظنه من جلود الإبل والله أعلم »[٢] .

ومصير هذا المصحف هو الاحتراق بحريق شبّ في المسجد بعد أن كان محفوظاً في بيت خشبي كما يروي المرحوم الدكتور يوسف العش عن القاضي عبد المحسن الأسطواني[٣] .

ويروي الصفاقسي رحمه الله (١١١٨هـ) : « ورأيت في مصحف عثمان أثر الدم وهو بالمدرسة الفاضلية بالقاهرة »[٤] ، ويرجّح المهتمون بالتراث أن المصحف الذي ذكره العمري موجود في دار الكتب بمدينة

---

(١) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ١/ ١٩٥ .
(٢) فضائل القرآن ، ابن كثير ، ص/ ٢٣ .
(٣) مباحث في علوم القرآن ، د . صبحي الصالح ، ص/ ٨٩ .
(٤) غيث النفع في القراءات السبع ، ص/ ٢٣٠ .

لينيجراد ، ثم انتقل إلى إنكلترا ولا يزال بها إلى اليوم[1] .

وثمة عدد في مجلة العربي يثبت وجود مصحف عثماني في مصر ، وكانت لجنة تقوم بترميمه وتحسينه ثم أذيع بوجود نسخة أخرى ، ولا يعني تلف هذه المصاحف منقصة ، فنحن لا نحتاج إلى وثيقة تاريخية عابرة ، فالصحف التي كتبت بين يديه عليه الصلاة والسلام أجل وأقدس ، وقد أتلفت ، فالمهم هو حفظ القرآن الذي هيأ له عز وجل الطباعة ، فانتشر بالملايين كل عام منذ عام ١٧٨٧هـ في سانت بترسبورغ بروسيا .

ج ـ إحراق المصاحف :

تؤكد الروايات أن عثمان رضي الله عنه حسماً للخلاف والنزاع قام بإحراق ما سوى مصاحفه على ملأ من الصحابة ، فقال علي رضي الله عنه : « لولم يصنعه عثمان لصنعته »[2] .

لكن المحاسبي (٢٤٣) لم يجعله إحراقاً عاماً ، بل قصره على ما يخالف مصاحف عثمان ، فقال في كتابه فهم السنن : « وأما قولهم : أحرق المصاحف ، فإنه غير ثابت ، ولو ثبت لوجب حمله على أنه أحرق مصاحف قد أودعت ما لا يحل قراءته »[3] .

ولكن بلاشير يغار على قدسياتنا أكثر منا ، فيرى في الإحراق هتكاً للقدسيات ويرى جولدزيهر أن حرق مصحفي أُبي وابن مسعود عمل تعسفي غير صالح .

فنرد عليه بقول علي رضي الله عنه : « يامعشر الناس ، اتقوا الله عز

---

(١) تأريخ القرآن ، د . الأبياري ، ص/ ١٣ .
(٢) المصاحف أبو بكر السجستاني ، ص/ ١٢ .
(٣) البرهان ، الزركشي : ١/ ٣٠٢ .

وجل ، وإياكم والغلو في عثمان ، وقولكم : حرّاق المصاحف ، فوالله ما حرقها إلا عن ملأ منا أصحاب محمد ﷺ »[1] كما نرد عليه بأن الروايات مختلفة بين الحرق والمحو .

وإذا كان جولدزيهر قد فطن إلى أن الإهانات التي ذكرت في ابن مسعود رضي الله عنه أسطورة فإن غيره من العرب يرويها على أنها حقيقة غائبة سكتت عنها الأمة ، لأن عثمان رضي الله عنه يريد أن يكتب قرآناً كما يحلو له ، إذن من المعيب أن الغربي يربط الكلام بالخيال الشعبي ، ودارسونا يوردونه على أنه حقيقة تبنى عليها حقائق أخرى ، لاغاية في هذا إلا نسف الركيزة الفكرية الأولى للأمة العربية والإسلامية .

إننا ندعو الباحثين إلى الانتصار للحق ، والدراسة بعيداً عن الغرض الفكري الضيق أو الأحكام الجاهزة سلفاً ، فلا شك أن بعض الدارسين تمسكوا بروايات ضعيفة تؤكد وجود مصاحف كثيرة وأنها كانت مستمرة بعد أن أحرق عثمان المصاحف ، وهكذا كان أبو بكر السجستاني مثلاً تُكأة للمستشرقين الذين لم يقبلوا فيه أي تجريح .

قال جفري : « وهذه تهمة لم يعرض بها المستشرقون لأنها لم تقم على حجة » مع أن أبا بكر هذا ضعيف ، وقال عنه الدارقطني : « إنه كثير الخطأ في الكلام على الحديث ، وقد كذبه أبوه في أكثر من حديث »[2] .

أما كثرة المصاحف فتدل على أن الأمة عنيت بهذا المصحف العثماني واستنسخته فكانت مئات النسخ في عشر سنوات كما تؤكد موقعة صفين إذ رفع أتباع معاوية رضي الله عنه على أسنة الرماح خمسمئة مصحف .

---

(١) مقدمتان ، ص/٤٦ مقدمة المباني ، والقرآن : نزوله تدوينه وترجمته ، بلاشير ، ص/٣٠١ . ومذاهب التفسير ، جولدزيهر ، ص/٨ .

(٢) تأريخ القرآن ، الأبياري ، ص/١١٧ .

وهل بعد تطور المناهج العلمية اليوم ، إذا رفضنا الاقتداء بمنهج المحدثين الذين يحكمون العقل والخلق ، فيعطوننا درساً في رفض ثنائية الجهل والحقد المقابلين لثنائية المحدثين ، هل بعد هذا من الطبيعي أن ننقل عن غير مسلم وغير عالم بالبحث ، بل هو مستعمر فكرياً كأجداده وأحفاده مثل هنري ماسيه القائل : « ويجب وما من شك في أن القرآن كما وصل إلينا لا يتضمن الوحي كله ، ومقابل ذلك فقد ظهرت له بعض الإضافات التفسيرية والتذييلات »[1] .

فهذا ماسيه هو المعلّم ، مع أنه في الإعلام ظهر ما يدعى بالحرب الإعلامية ، وكثير من الأخبار لا يؤبه بها لكون مصدرها من العدو ، فكيف ننقل كلاماً عن المسلمين من عدو المسلمين ، بغض النظر عن عقيدة الناقل ؟!

وأختم البحث بقولي : إن هؤلاء المستشرقين لا يؤتمنون على أرخص الأشياء فكيف يجعلهم بعض المتعلمين أوصياء على الفكر الإسلامي ، ومعلمين من الدرجة الوحيدة ؟

ونرجح أن يقصد المحو لعدم الإتلاف المحرم في الإسلام ، إذ أثار هذا العمل خلافاً في حكم تحريق الكتب التي فيها اسم الله بالنار ، فقال ابن بطال (٤٠٤هـ) : « في حديث البخاري جواز تحريق الكتب التي فيها اسم الله بالنار ، وأن ذلك إكرام لها ، وصون عن وطئها بالأقدام ، وكرهه بعضهم ، وقال الحافظ ابن حجر : هذا الحكم هو الذي وقع في ذلك الوقت ، وأما الآن فالغسل أولى ، لما دعت الحاجة إلى إزالته » .

ويقول الأستاذ لاشين رحمه الله : « والذي تستريح إليه النفس أن

---

(١) الإسلام ، هنري ماسيه ، ص/١٠٨ـ١٠٩ ، والنص القرآني ، ص/٣٨٦ .

الحكم يتبع القصد والنية ، فما دام القصد صيانته من الامتهان جاز التخلص منه بأية وسيلة الحرق أو الخرق أو الحك أو الغسل أو الإلقاء في البحر ، أو إرساله إلى مصانع الورق لتصنيعه من جديد ، إلى غير ذلك من الوسائل ، وكل ما يلزم أن تكون الوسيلة كريمة ، فلا يُلقى في مزبلة أو في مكان قضاء الحاجة مثلاً[1] . . » .

ولكن السنة أساساً دفن المصحف ، ولا يمكن تحقيقها اليوم ، لأن الأرض صارت معرضة للحركة والصناعة والحفريات ، فالآمن هو الحرق تبعاً لتغير الظروف ، خصوصاً أن المكتوب في المصاحف وغيرها مطبوع لا يزال بالحك ولا بالغسل .

وما قصدنا هنا إلا بيان الحق بالمناقشة والبرهان ، ولا نقصد الإساءة إلى شخص بعينه ، إذ تربينا على منهج القرآن في حثه على الحق والخير والجمال ، وعلى موضوعية المحدّثين فبينا الحق ، وأثبتنا غاياتنا الخيرة ، وذلك بأسلوب متأنق يترفع عن أسلوب بعض الطرف الآخر .

* * *

(١) اللآلئ الحسان ، لاشين ، ص/ ٦٤ .